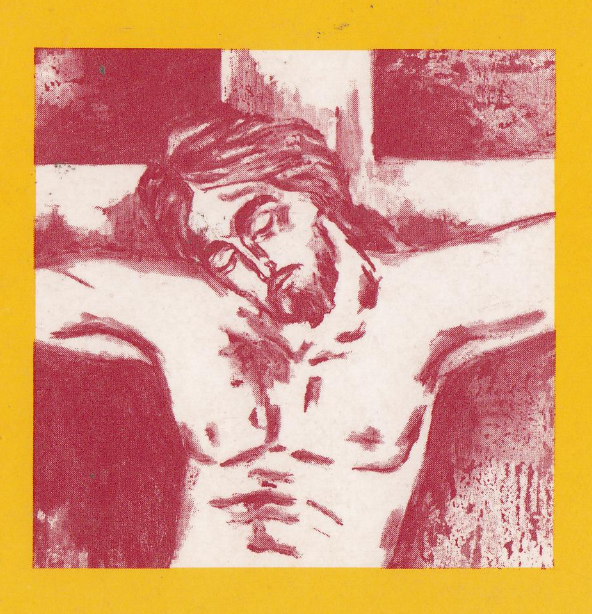
اقدم النصوص المسيحية

سلسلة النصوص اللاهوتية

٤

يوحنا الذهبي الفم

في أن الله لا يمكن إدراكه



منشورات المكتبة البولسية

صدر حتى الآن، في سلسلة «**أقدم النصوص المسيحية**»:

أولاً: سلسلة النصوص اللاهوتية

١ - **اقليمندوس الروماني. راعي هرماس.**
تعريب الأب جورج نصور.

٢ - **القديس باسيليوس الكبير: مقال عن الروح القدس.**
تعريب الأرشمندريت أدريانوس شكور ق. ب.

٣ - **مار افرام السرياني: منظومة الفردوس.**
تعريب الأب روفائيل مطر اللبناني.

٤ - **يوحنا الذهبيّ الفم: في أن الله لا يمكن إدراكه**
عرّبه وقدّم له الأب جورج خوّام البولسي.

ثانيًا: سلسلة النصوص الليتورجية

١ - **الديداكيه. التقليد الرسولي. نافور ادي وماري.**
خولاجي سيرابيون. عهد الرب
تعريب الأبوين جورج نصور ويوحنا تابت

٢ - كيرلّس الأورشليميّ: **العظات**
تعريب الأب جورج نصور

٣ - ويلي روردورف: **السبت والأحد في تقليد الكنيسة**
(نصوص من القرن الأول حتى القرن السابع)
تعريب الأخت مارسيل هدايا

ثالثًا: سلسلة النصوص الكتابيّة

رابعًا: سلسلة النصوص النسكيّة

١ - **كتاب المراقي**: عرّبه عن السريانيّة المطران فرنسيس البيسريّ

فى أن الله لا يمكن إدراكه

طبعة أولى

١٩٩٢

•

منشورات المكتبة البولسية

شارع لبنان - بيروت - ص.ب: ٤٤٥٩-١١ لبنان
هاتف: ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب: ١٢٥ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

بالتعاون مع

A.T.I.M.E.
رابطة معاهد اللاهوت في الشرق الأوسط

المنتسبة إلى



مجلس كنائس الشرق الأوسط

المركز الرئيسي:
ص.ب. ٥٣٧٦ بيروت - لبنان
هاتف: ٨٦١٦٧٠-٣٥٣٩٣٨
برقيا: اكليسيا
تلكس: 22662 OIK LE

مكتب الاتصال:
P.O.Box 4259 Limassol. Cyprus
Tel: 05-326022
تلكس: 5378 OIK CY
تلفاكس: 05 - 324496

أقدم النصوص المسيحية

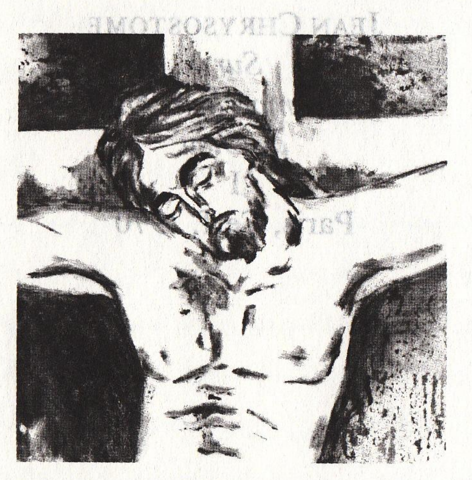
•

سلسلة النصوص اللاهوتية

٤

يوحنا الذهبي الفم

في أن الله لا يمكن إدراكه



عرّبه وقدّم له

الأب جورج خوّام البولسي

منشورات المكتبة البولسية

عرّب هذا الكتاب عن النص اليونانيّ الصادر في سلسلة

SOURCES CHRÉTIENNES N° 28 bis

JEAN CHRYSOSTOME

Sur

L'Incompréhensibilité

de Dieu

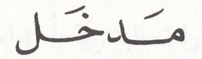
I

Paris, Cerf, 1970

أعاد النظر في الترجمة

الأب جورج باليكي البولسي

١٩٩٢


مَدخَل

تمهيد

يحفل تاريخ الحضارات البشريّة بأحداث وانقلابات فيها الدامي المفجع الذي يلطّخ الجبين، والسامي المشرّف الذي تفتخر به الإنسانيّة وتعتزّ به السجلاّت. هذا هو شأن المجتمعات الإنسانيّة على كرّ الزمان والعصور. فحيث وجد الإنسان وجد الواقع الإنسانيّ بمرّه وحلوه، بكربه وفرحه. ولا تخرج الكنيسة عن هذا الإسار الكيانيّ، الذي يُخضع لشريعته جميع المؤسّسات الزمنيّة والروحيّة. فهي أيضاً لها تاريخها الخاصّ، وفيه الجليل والمخزي والسنيّ والقاتم. ولا غرو في ذلك، فإنّ الكنيسة منذ تأسيسها وائتمان أناس على رسالتها قد حملت في طيّها بذرة النقص، وأمست عرضة للخلافات والانقسامات منذ عهد الرسل (خلاف بطرس وبولس بخصوص الأمم). لكنّ مؤسّسها الربّ يسوع المسيح قد أكّد لرسله القدّيسين أنّ «أبواب الجحيم لن تقوى عليها» (متى ١٦ : ١٨). هذا هو يقين المسيحيّين الثابت ورجاؤهم الوطيد بأنّه مهما تكاتفت قوى الشرّ وتحالفت نقائص الطبيعة البشريّة ضدّ بناء الكنيسة الذي فيه المسيح حجر الزاوية والأساس المتين، فإنّ هذا البناء سيبقى مشيّداً وسيستمرّ في ارتقائه معارج الكمال

حتى بلوغه مصدره. وقد رتّب الله أبو الأنوار بحكمة فائقة الوصف أن يكتشف الإنسان المشارك مشاركة حقيقيّة في غرس كرمة الربّ امتناع قوام الكنيسة على الإدراك، واستحالة ارتفاع بناء إلهيّ التأسيس على أكتاف بشر أرضيّي الطينة. لذلك، يعمل المؤمنون «الراسخون في العلم» الإلهيّ على إبقاء روحهم مشدودة على الدوام إلى عالم السماء، لتيقّنهم من خواء الانتماء الأرضيّ الذي تدعوه العبارة الإنجيلية «الملكوت الفاني».

لقد مزّق الكنيسة الواحدة، منذ عصر الرسل، واقع الانقسامات الذي اجتهد بولس كثيراً في محاربته [١]؛ وقد نتج عنه تفرّق أبناء الله ثانية بعد أن جمعتهم الكلمة الواحدة في شخص السيّد له المجد، إلى شيع عديدة وملل متنوّعة، متحاربة ومتباغضة ومتناحرة في ما بينها. **وأصبحت كنيسة المسيح كنائس البشر.** فراحت كلّ كنيسة تُكنّى باسم مبدعها الذي يعبد الله كما تصوّره له طاقات عقله. وتحوّل اسم المسيح من رمز وحدة إلى رمز صراع، ومن مؤسّس الجماعة إلى نقطة الخلاف في التأسيس، ومن صانع الكلّ بمجد إلى منحوت تتكيّف به إرادات الأشخاص وميول المقتدرين. وقد زادت الظروف التي عايشتها هذه الانقسامات الواقع ألماً والجرح إثخاناً فيه [٢]، إذ لم تكن الكنيسة قد خرجت بعد من عالم الدياميس إلى دنيا الوجود الشرعيّ الذي يمكنها فيه أن تمارس شعائر طقوسها دون ملاحقة وبحريّة مطلقة. وبالرغم من نشوء عددٍ من البدع والدعوات المنحرفة عن طريق الصواب اللاهوتيّ في هذه الحقبة، نتيجة تأثير الثقافات والتيّارات المعاصرة، فإنّ ناقوس الخطر لم يُقرَع كما حصل في القرون اللاحقة؛ بل إنّ بعض هذه الدعوات قد خبت شعلتها.

المجمع المسكونيّ الأول : نيقية (٣٢٥)

إنّه يسعنا الجزم بأنّ انعقاد المجمع المسكونيّ الأوّل قد ألّف نقطة تحوّل جوهريّ في تاريخ الكنيسة ، إذ أضفى على مؤسّستها وجهاً جديداً مكّنها من الخروج به إلى ملاقاة العالم الرومانيّ . صحيح أنّ الكنيسة قد اغتذت ، خلال القرون الثلاثة الأولى ، من حياة فكريّة وروحيّة وتنظيميّة نامية ، وعرفت تطوّراً عقائديّاً ومحاولات اجتهاديّة في تفسير فحوى الإيمان ، وتغلّبت على صراعات ومجادلات شتّى حاولت اقتناص كنه المعتقد المسيحيّ ، لكنّ كيانها المعنويّ بالنسبة إلى المجتمع الرومانيّ لم يكن كياناً شرعيّاً يخوّلها التأثير المباشر في المحيط العامّ بمقرّراتها وتعاليمها وإيديولوجيّتها ؛ لذلك ، كان كلّ ما يجري في داخلها من تطوّرات وتحديثات وابتكارات يبقى دفيناً ، ليس ملزماً به سوى المؤمن ، وفي حيّز اجتماعيّ ضيّق . أمّا قوام الكنيسة ، منذ حدث المجمع المسكونيّ الأول ، فأمر مختلف كثيراً عنه قبل انعقاد هذا المجمع الذي أبرزها للعيان لا كمؤسّسة شرعيّة منظّمة خير تنظيم وحسب ، بل كسلطة عليا في المجتمع الرومانيّ يؤازرها في تثبيت مراسيمها الإمبراطور نفسه .

لم يكن الاعتراف القانونيّ بالمنظّمة الكنسيّة ضمن الإمبراطوريّة الرومانيّة الهدف الوحيد الذي جاء المجمع المسكونيّ ليشهد عليه ويؤكّده ؛ بل ثمّة أهداف أخرى ، عقائديّة وتنظيميّة ، كانت تستوجب أيضاً انعقاد مجمع مسكونيّ ، أهمّها على الإطلاق الأزمة الأريوسيّة . ولكنّنا إذ نصبّ جهدنا في هذه الفقرة على دراسة حدث المجمع المسكونيّ الأوّل نبغي من ذلك أمراً واحداً ، ألا وهو تحليل الركائز الأساسيّة والأبعاد الجوهريّة الأولى التي قام عليها المجمع ، لا

التكلّم على مجريات الجلسات والانكباب على المواضيع والمناقشات التي عولجت خلاله. فما هو السبب الحقيقيّ الأوّل الذي التأم من أجله المجمع؟ وكيف أصبح هذا المجمع مسكونيّاً؟ ومن أين أهميّته كحدث تاريخيّ؟ هذه هي الأسئلة التي ستعمل الصفحات التالية على إيضاحها وتقديم الأجوبة عليها. ولا يغني عن الإشارة أنّ الإحاطة بهذه الظروف والوقوف على هذه المعطيات يسهّلان على قارىء عظات الذهبيّ الفم فهم البدع التي يناهض، والنقاط الخاطئة التي يحارب في عقائد هذه البدع. إنّ مناصري فكرة الاختلاف الجوهريّ بين الأقانيم الثلاثة هم المرمى الذي يهدف القدّيس يوحنّا إلى التصويب عليه من خلال عظاته. ولكنّ منبت هذه البدعة ونشأتها وتطوّرها قد وطّدت لها قدماً وأرسخت لها جذراً في المجمع المسكونيّ الأول الذي غدا أيضاً حاضن هرطقات أخرى عديدة، ممّا لم يكن يتوقّعه أو يطمح إليه.

١ً - سبب انعقاده:

كي يكون هناك قضاء يجب أن يكون هناك قضيّة؛ ولكي تستوجب هذه انعقاد مجمع ما ليبحث فيها، فإنه ينبغي ترافع طرفين لدى أصحاب القضاء للفصل في قضيّتهما. وإذا لم يتمّ الاتّفاق ويحصل الوفاق بين الطرفين المتنازعين، صير إلى اللجوء كمسعى أخير إلى عقد مجمع تتمثّل فيه السلطة بأعلى مستوياتها: آنذاك، يكون قرار الفصل باتّاً ونهائيّاً. هذا ما حدث باختصار في انعقاد المجمع المسكونيّ الأوّل. ولكن، لماذا أرادته الكنيسة «مسكونيّاً»، بالشكل الذي جاء فيه؟

لم يكن عقد مجمع في نيقية عام ٣٢٥ خبرة جديدة بالنسبة إلى

الكنيسة، إذ سبق لها خلال القرنين الثاني والثالث أن عقدت مجامع «محليّة» عديدة كانت تحسم فيها الخلاف اللاهوتيّ الناشىء بين المؤمنين، وتردّ الأمور إلى مجاريها الطبيعيّة دون أن يحدث في صرحها شرخ مستحكم، أو تتّخذ البدعة المحاربة شكل كنيسة مستقلّة. كما لم يكن دور رومة في حلّ تلك الخلافات غائباً عن الساحة، وإن لم يشهد هذا الدور رئاسة مباشرة للمناقشات. في نهاية القرن الثاني مثلاً، أوعز البابا فيكتور إلى أساقفة مختلف الأقطار في آسية الصغرى بأن يعقدوا مجامع إقليميّة لتوحيد عيد الفصح الذي كان يُعيَّد له عندهم يوم عيد الفصح اليهوديّ. فإذا كان المجمع الذي دعت الكنيسة إلى انعقاده في مدينة نيقية غير متفرّد في شيء عن سوابقه، فما الباعث أو العنصر الجديد الذي دفع الكنيسة إلى جعله مسكونيّاً؟ إنّ البدعة الأريوسيّة التي عُقِد المجمع المسكونيّ الأوّل لدراستها والبتّ في دعواها قد عولجت في مجمع إقليميّ التأم في مدينة الإسكندرية عام ٣٢٠، ودينت بالضلال اللاهوتيّ وحُرم زعيمها أريوس. ثمّ إنّ خطورة تعليمها لم تتعدّ خطورة تعليم دعوات هرطوقية سابقة، كالدعوة السابليّة مثلاً أو المونتانيّة. فالعنصر الجديد الذي طرأ على النهج المتّبع في تذليل الخلافات اللاهوتيّة كامن إذاً لا في مضمون العقيدة المنحرفة أو في شكل معالجتها، بل في ظروف اكتنفت نشأتها ورواجها، وساعدت على انتشارها رغم تحريمها وعلى رفض رئيسها الخضوع لمقرّرات المجمع الذي حاكمه. هذه الظروف قد خلقها واقع إضفاء الصفة الشرعيّة على المؤسّسة الكنسيّة، والسماح للمؤمنين بمزاولة شعائرهم الدينيّة علانيّة بعد قرون ثلاثة من الاضطهاد والتنكيل، واعتناق الإمبراطور الرومانيّ نفسه للديانة المسيحيّة الجديدة.

وفي الواقع ، لم تكن الكنيسة لتبدو في وضع حرج أمام المجتمع الرومانيّ والديانات الأخرى المجاورة لها عندما كانت بدعة ما تنمو في وسطها ، إذ لم تكن تحظى خلال القرون الثلاثة الأولى من تاريخها بحقّ مدنيّ يجعل وجودها رسميّاً ورجالاتها منظورين وتعاليمها مشاعة للجميع . زد على ذلك أنّ حلّ الأزمة كان يتمّ سريعاً في منبت نشوء الضلال ، فتكتفي كنيسة المحلّة بتصحيح الخطإ وإظهار الصواب لرعاياها ، إذ إنّ وطأة الاضطهاد الذي كان هدفاً له المؤمن ذو الرأي القويم والهرطوقيّ ذو الابتداع النكير كانت تؤلّف حافزاً قويّاً لدى الاثنين ليقرّا السلام . بيد أنّ الوضع الكنسيّ بات مختلفاً جدّاً بالنسبة إلى الكنيسة ورؤسائها ، عندما نالت حقّها الشرعيّ في الاعتلان للمسكونة دون وجل ولا اضطراب . إنّ الكنيسة التي خرجت من غياهب الوجود إلى العالم الرومانيّ قد كشفت عن تنظيم لا يضارع في مؤسّستها ، وعن هيكليّة محدّدة البناء وراسخة القواعد والأطر تعمل من خلالها على استمرار الحياة الجديدة بحسب الإنجيل . فمع هذه المعطيات ، كان بروز بدعة جديدة خطراً كبيراً على الكنيسة يتحدّى ثقة العالم الرومانيّ بها وبمفاهيمها الغريبة ، وقد يعرّضها من ثمّ للتحاملات والتهجّمات والانتقادات . لذلك ، أمام هذا الواقع المربك لنشوء بدعة في ظرف ما كادت الكنيسة بعد تعي وجودها الجديد في الإمبراطوريّة الرومانية ، بدت الدعوة إلى عقد مجمع «مسكونيّ» ردّاً صاعقاً على اتّهام البدعة الأريوسيّة ، ولا سيّما وإنّ زعيم البدعة رجل إكليريكيّ عرف كيف يستفيد من الظروف الجديدة لينشر تعاليمه ويحقّق مآربه . وباختصار ، كان الهدف من عقد هذا المجمع المسكونيّ الأول إظهار الكنيسة قويّة ومتماسكة في تحديد مفاهيمها اللاهوتيّة ووحدة معتقدها الإيمانيّ ،

وحمل أصحاب البدعة على العودة عن أضاليلهم وفرز الخارجين عن وحدة الرأي فيتّعظ بهم من تحوّل له نفسه المساس بجوهر إيمان الكنيسة.

٢ - صفته المسكونيّة:

إنّ التساؤل عن صفة المجمع المسكونيّة تحتّم علينا التذكير بالواقع الجديد الطارىء. فقد نشأت بدعة جديدة في حضن الكنيسة، ولم يكن هذا الأمر هجينًا أو غريباً في ذاته. لكنّ الحدث الغريب هو تمرّد صاحب البدعة على مقرّرات مجمع درس تعاليمها ودحضها وحرّمها، ثمّ تحدّيه لهذا المجمع بمواصلة نشر التعاليم الخاطئة واستنصار أساقفة عديدين. كما استفاد صاحب البدعة من الحريّة الدينيّة التي أشاعها مرسوم ميلانو عام ٣١٣، فلم يستكن لتهديدات أسقفه ولم ينقد لمقررات المجمع بل راح يبثّ دون ارتداع أضاليله داعيًا إلى محاربة ذوي الرأي المخالف. لذلك، كان لا بدّ للكنيسة الجامعة، بعد عجز الكنيسة المحلّية عن التوصّل إلى اخماد جذوة الدعوة الأريوسيّة، من حشد رعاة القطيع المسيحيّ بكامله لوضع حدّ لهذا البلبال الذي راج في مناطق عدّة من أرجاء الإمبراطوريّة، فأمست القضيّة تستوجب معالجة على مستوى أرفع، بمشاركة أكبر عدد من الأساقفة ولا سيّما وإنّ عدداً منهم قد انضمّ إلى المذهب الجديد[٣]. لهذا السبب، بات ضرورة ماسّة «تدويل» هذه المسألة كما نقول اليوم، بالتئام جميع أساقفة الأمصار في مجمع واحد يضمّهم معًا، ويمثّل الكنيسة الواحدة المعترف بها في الدولة الرومانيّة. إنّ هذا التدبير هو الذي أضفى على المجمع صفته المسكونيّة، وقد كان يهدف إلى تحقيق غرضين اثنين: الأول

إظهار وحدة المعتقد القويم الذي تؤمن به وتسير عليه الكنيسة الواحدة المحاطة بعالم وثنيّ ماديّ مهترىء، خسر الكثير من عظمته وسحره وانتشاره؛ والثاني توطيد الإيمان المسيحيّ الصحيح المتوارث عن الرسل والآباء في قلوب المؤمنين وعقولهم، فلا يرتابون من بعد بما بشّروا به. لذلك، كان حضور أساقفة العالم المسيحيّ لا ضرورة حتميّة وحسب، بل الجواب الأوحد على الأزمة الأريوسيّة. فقد أمنت الكنيسة لنفسها بمثول جميع الأساقفة من الوقوع في فخّ استشراء الضلال بين القطيع، ومن فقدان الثقة بها لدى الفئات المعتنقة حديثًا للدين المسيحيّ. كما قطعت الكنيسة بتدبيرها الحكيم هذا، أي جعل المجمع المنعقد في نيقية مسكونيّاً، الطريق على المتربّصين بها شرّاً والطامحين في استعادة نفوذهم وفتنتهم السالفة، الساعين إلى إظهار الكنيسة منقسمة على نفسها وغير قادرة على جمع الشمل حول كلمة واحدة.

٣ً – أهميّته التاريخيّة:

لقد جاء انعقاد المجمع المسكونيّ الأول الكنيسة بأهميّة كبيرة على مستويي حياتها الداخليّة والخارجيّة، التاريخيّة والروحيّة، التنظيميّة واللاهوتيّة. وتظهر أهميّة هذا الحدث بالنسبة إلى حياة الجماعة المسيحيّة الأولى باندراجه في أعياد السنة الطقسيّة، إذ راح الآباء والمؤمنون يعظّمون التعاليم والتحديدات التي أقرّها هذا المجمع في تقاريظ وأناشيد احتفاليّة، واحتلّ العيد بهذا التذكار مكانة مرموقة بين كافّة الأعياد والتذكارات الأخرى، إذ اتّخذ الأحدَ السابع بعد الفصح يوماً طقسيّاً تبتهج فيه الكنيسة كلّها «إذ قد لبست وشاح الحقّ المنسوج من

علم اللاهوت المنزل» (قنداق أحد الآباء القديسين)، وكأنّي بالآباء الروحيّين الذين التأموا في مجمع نيقية رسلاً حقيقيّين، على مثال الرسل الأوّلين، لأنهم أعطوا العالم الوثنيّ ثانية وجه الكنيسة الوضّاح، المزيّن بنور المسيح.

لكنّ أهميّة هذا الحدث التاريخيّة مستقاة من وضع المجمع تحت إشراف الإمبراطور قسطنطين، الذي يمثّل السلطة المطلقة في أعين المجتمع الرومانيّ. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ قسطنطين لم يترأس المجمع، بل قد أشرف على سير جلساته: والفرق بين الأمرين كبير. لأنّ رئاسة المجمع المسكونيّ القانونيّة لا يمكن أن تحصل من خارج عداد رؤساء القطيع الذين ثبّتهم الروح القدس أساقفة وخلفاء للرسل. زد على ذلك أنّ مخالفة مقرّرات المجمع النيقاويّ المسكونيّ ومناقضة تعاليمه عبر مجامع أخرى وولادة بدع عديدة وهرطوقيّة انطلاقاً من المفاهيم الجديدة واللاهوتيّة التي أطلقها ما كانت كلّها أموراً ممكنة على الصعيد الداخليّ لحياة الكنيسة لولا مواقف الأباطرة المتقلّبة والعدائيّة من مجمع نيقية. فإذا قادت فطنة الآباء الأولين خطاهم إلى إكساب المجمع أهميّة تاريخيّة بإشراك السلطة الزمنيّة العليا فيه، إلّا أنّ مخاصميهم وأعداءهم سوف يكتشفون ثغرة في هذا التدبير كي يبزغوا منها إلى تحقيق مآربهم، وذلك عن طريق استغلال هذه السلطة الزمنيّة الجاهلة في أغلب الأحيان للحقائق اللاهوتيّة. أما الدافع الذي حدا بالآباء إلى وضع المجمع تحت إشراف الإمبراطور قسطنطين فقد جاء مقروناً بعدّة أسباب:

الأوّل: إنّ الإمبراطور المذكور هو صاحب الباع الكبير والفضل الثمين

بإعتاق الديانة المسيحيّة من عقال الأسر الذي فرضه عليها الأباطرة الرومانيّون السابقون. لذلك، كان لا بدّ من تكريمه على صنيعه هذا، وأيّ تكريم أفضل من إظهار وصايته على الكنيسة الفتيّة بوضع المجمع الممثّل الكنيسة كلّها تحت إشرافه وفي عهدته؟

الثاني: إنّ المجمع المنعقد على أرفع مستوى للسلطة الكنسيّة حدث جليل في الإمبراطوريّة الرومانيّة، من شأنه أن يحدث انقلابات في بُناها وأحداث شغب وحركات مناهضة دامية، فلا بدّ أيضاً من إشراف ساهر للسلطة الزمنيّة على سير أموره.

الثالث: يتوازى دون شكّ في سرائر المجتمعين رغبة خفيّة دفعتهم إلى تبنّي هذه الخطوة، وتتلخّص بتأمين غطاء مدنيّ يمكنه أن يفرض بالقوّة (كذا) مقرّرات هذا المجمع، ويحبوها نفاذاً وفعالية كي تصبح سارية التطبيق لدى الفريق الأريوسيّ المعارض.

فمن البديهيّ أن يظهر مخالف القرارات المجمعيّة آنئذ بمظهر المعترض على مشيئة الإمبراطور «المقدّسة». لكنّ هذا التدبير سيصبح، كما ذكرنا آنفاً، قيداً ثقيلاً على الكنيسة في السنوات اللاحقة، إذ ستناط قرارات بعض المجامع بميول الأباطرة؛ بل إنّ بعضهم سيتدخّل تدخّلاً فادحاً في شؤون الكنيسة الداخليّة حتى يحدّد مثلاً بعض العقائد اللاهوتيّة ويفرض العمل بها في بعض المجامع، ويعيّن الأساقفة والبطاركة ويقيل منهم من يعارض مشيئته إلخ. وسوف يعرف المبتدعون كيف يستفيدون من استمالة بعض الحكّام إليهم، فيوطّدون دعوتهم وينجحون في تعيين أساقفة مناصرين لهم على أبرشيّات كبيرة، كما حدث غداة انعقاد المجمع المسكونيّ الأول. فقد تحمّلت الكنيسة،

طوال القرن الرابع ، على أثر استفحال تدخّل الإمبراطور في حياة الكنيسة الداخليّة ، العذاب والنفي والاضطهاد ثانية ، ولكن – هذه المرّة – من داخلها وعلى يد أبنائها الأخصّاء.

صحيح أنّ البدعة الأريوسيّة من حيث مضمونها اللاهوتيّ لم تكن أكثر خطورة على المسيحيّة من مثيلاتها في القرون الفائتة ، إذ جعلت كلّها هدفاً لها النيل من حقيقة الثالوث الأقدس. ولكنّ مجرّد عقد مجمع مسكونيّ ضمّ الكنيسة كلّها كان كافياً ليكشف عن القلق العظيم والارتباك الهائل اللذين ألمّا بالآباء الروحيّين ، أنّى خرجت الكنيسة من غياهب الدياميس إلى أنوار الوجود الحرّ. فقد أبرز انعقاد المجمع بعداً جديداً كان لا يزال خفيّاً عن العيون ، إذ شهد على وجود حياة فكريّة قويّة ، وعلى نموّ متطوّر للنشاط اللاهوتيّ في الأوساط الرهبانيّة – وهي الأوساط التي خرجت منها جميع البدع – بغية تفسير الإيمان المسيحيّ(٤) ، وشرح الكتب المقدّسة والعقائد الدينيّة. كما أنّ انعقاد المجمع قد استرعى انتباه الآباء لضرورة توضيح المفاهيم والألفاظ اللاهوتيّة المستعملة في التعبير عن فحوى الإيمان ، ولضرورة إقامة تحديدات دقيقة بهدف تفسير معطيات إنجيليّة وكتابيّة غامضة ، كتلك التي تتحدّث عن علاقة الآب بالابن ودور الروح القدس الوسيط في هذه العلاقة. ويشهد أيضاً حدث انعقاد المجمع على أنّ النشاط الفكريّ مرتبط أيضاً بالنشاط الروحيّ الذي دفع أولئك المسيحيّين إلى التأمّل في شخص المسيح المتأنّس والتعمّق في سرّ تجسّده(٥) ، منصرفين عن هموم النفي والتشريد والعذابات والملاحقات القضائيّة.

البدعة الأريوسيّة: بؤرة بدع القرن الرابع

لماذا لم نقصر الكلام على بدعة القائلين باختلاف الجوهر الإلهيّ، التي تؤلّف حصراً مرمى عظات الذهبيّ الفمّ حول «اللامدرك»؟ ذلك لأنّ هذه البدعة قد استقت تعاليمها ولاهوتها من البدعة الأريوسيّة، واقتبست عنها مبادئها ونظرياتها، وناصرتها ردحاً من الزمن وجاورتها في أمكنة انتشارها، ثمّ انقلبت عليها وعادتها في ما بعد؛ لا بل قد انقسمت البدعة على نفسها إلى فرق عديدة في أواخر القرن الرابع، ولم تتجاوز منتصف القرن الخامس في بقائها على قيد الحياة. لذلك، يتحتّم علينا معرفة النظريّة الأريوسيّة ولاهوتها المتعلّق بالثالوث الأقدس، ريثما يسهل علينا استكشاف الضلال في تعليم البدعة الوالدة، ثمّ البدعة المولودة.

١ً – لمحة موجزة عن حياة أريوس:

ولد أريوس في مدينة قيروان[٦] التابعة لكرسيّ الإسكندريّة من حيث الولاية الكنسيّة. ولمّا كانت هذه المدينة مركزاً حضاريّاً[٧]، نشأ أريوس محاطاً بجوّ العلوم والثقافة الهلّينيّة التي اطّلع منها على التيّارات الفلسفيّة العديدة، فنهل منها بشغف ونوّع في مشاربها حتّى تكوّنت لديه سعة في المعارف الدنيويّة. لكنّ نفسه قد أضمرت في حناياها طموحاً جشعاً، ونيّة في بلوغ المراتب والمناصب العليا، مستندة إلى كبرياء شامخ يتأجج غلياناً إزاء نجاح الغير، ومستعدّة لإعلان الخصومة حول الأمور العقائديّة أملاً في تصدّر رأس الجماعة.

وإبّان انفصال ملاتيوس[٨] الذي انعكس صداه وتأثيره على البلاد المصريّة، فوجد لدى البعض آذاناً صاغية وقلوباً صاغرة، كان

أريوس قد دخل سلك الإكليرس، ونال الرسامة الإنجيليّة على يد البطريرك بطرس الإسكندريّ. ثمّ ما لبث أن انحاز إلى أنصار الحركة الانفصاليّة الذين صاروا هدفاً لعدّة تدابير احترازيّة اتّخذها تجاههم البطريرك المذكور. وبما أنّ أريوس كان واحداً منهم، فقد شملته تلك التدابير، لا سيّما وإنّه قد تنكّر لإصدارها وأهميّتها، فرشقه البطريرك بالحرم. وبعد مرور فترة وجيزة، عام ٣١٠، توفّي البطريرك بطرس وخلفه على كرسيّ الإسكندريّة أخيلا. إذّاك، قرّر أريوس العدول عن غيّه وموقفه السابق، وطلب من البطريرك الجديد الصفح وقبوله في الشركة الكنسيّة، فحصل على المصالحة ورضى البطريرك الذي ما عتّم أيضاً أن رسمه كاهناً، وأوكل اليه مهمّة رعائيّة ووظيفة واعظ لشرح الكتب المقدّسة. وعندما مات البطريرك أخيلا، أمل أريوس في ارتقاء السدّة البطريركيّة[٩]، وتحرّق لذلك كثيراً. لكنّ إكليرس الإسكندريّة انتخب لهذا المنصب الكاهن الورع ألكسندروس، فحزّ هذا الأمر جدّاً في نفس أريوس، وبات يترقّب الفرصة المناسبة لاقتناص مسلك البطريرك الجديد. إلا أنّ أخلاق ألكسندروس وسموّ فضيلته وأثرها في نفوس الرعيّة أحبطت كلّ مسعى خبيث لدى أريوس، الذي لم يجد بدّاً من ابتداع خلاف يضعه في مواجهة مع ألكسندروس، لعلّ المقارنة تجلب له حظّاً أوفر في النجاح[١٠].

٢ - التعليم الأريوسيّ:

ليس لنا من مصدر أفضل للتعرّف على فحوى التعليم الأريوسيّ من الاستماع إلى أريوس نفسه وهو يشرح عقيدته، في رسالة بعث بها إلى صديقه القديم أفسيبيوس أسقف نيقوميذية[١١]، الذي سيبقى العضد

الأكبر للأريوسيّة رغم توقيعه على وثيقة الإيمان النيقاويّ[١٢] :

«... إنّ جرمنا بكامله يكمن في رفضنا الانضمام إلى معتقده الخاطىء (معتقد ألكسندروس)، والقول معه إنّ الله أزليّ والابن أزليّ؛ وإنّ الآب والابن كانا معاً منذ الأزل وإلى الأبد؛ وإنّ الابن مولود منذ الأزل؛ وإنّ الآب لا يسبق البتّة الابن ولا بلحظة، ولا حتّى بالفكر. هو الله على الدوام والابن على الدوام؛ إنّ الابن منبثق من الله بالذات... أمّا في ما يخصّنا فإنّنا نقول ونؤمن بما كنّا قد علّمناه سابقاً، ولا نزال نعلّمه الآن أيضاً: إنّ الابن قد وُجِد بإرادة الآب ومشورته، قبل الأزمان والدهور، إلهاً كاملاً وابناً وحيداً لا يقبل تغيّراً. ولكنّه لم يكن موجوداً قبل أن يولد أو يُخلَق. وقد اضطهدنا لأنّنا قلنا: إنّ للابن بدءاً، اما الله فلا بدء له. ويُرتَكب بحقّنا أعمال فظيعة لأنّنا قلنا إنّ الابن خرج من العدم: هذا ما قلناه، لأنّه ليس جزءاً من الله، ولا خرج من خليقة ما. هذا هو سبب أحزاننا، وأنتم تعرفون الباقي. إنني أتمنّى لكم كلّ أنواع التوفيق في الربّ. أذكروا آلامنا».

يرشح من أقوال أريوس في هذه الرسالة التعليم التالي: إنّ الله هو الكائن الأزليّ الذي لا بدء له، وهذه هي خاصّته التي يتميّز بها؛ وبمعنى آخر: يتحدّد جوهر الله بالأزليّة. والحال أنّ الابن مولود (أو مخلوق، حسب تعبير أريوس، وشتّان ما بين الولادة والخلق!)، فهو بالتالي غير أزليّ إذ لوجوده بدء وإن خارج الزمان، كما يذكر أريوس في رسالته (وهنا فجوة أخرى في النظرة الأريوسيّة تضاف إلى النقص السابق في عدم دقّة التعابير اللاهوتيّة المستعملة). ويستخلص أريوس من قضيّته الاستدلاليّة هذه أنّ جوهر الابن مختلف عن جوهر الآب، فهو ليس إلهاً كما الآب.

وكان أريوس قد عاب على ألكسندروس استعماله تعبير «**مساوٍ للآب في الجوهر**»[١٣]، في معرض الحديث عن السيّد له المجد. وهذا

ينطوي على ألوهية المسيح الربّ يسوع ، إذ الجوهر واحد هو نفسه لدى الاثنين ، دون أدنى فرق أو تمييز. ولكنّ أريوس اعترض على هذه الطريقة في التعبير ، لأنّها تعيدنا في رأيه إلى بدعة سابيليوس ، إذ تظهر لنا الإله تارة أباً وطوراً ابناً ، ما دام جوهر الشخصين واحداً . لذا ، فقد أصرّ أريوس على تمايز الابن والآب ككائنين منفصلين لا يجمع بينهما شيء مشترك سوى الإرادة ، مستنداً على يو ٥ : ٣٠. ولكنّ الآب ، في نظره ، قد خصّ يسوع بقدرات إلهيّة كالقدرة على الخلق واجتراح المعجزات والنبوّة. ثمّ قام الابن بخلق الروح القدس والعالم الماديّ[١٤] ، فكان وسيطاً بين الله والناس.

٣ – البدع الأريوسيّة :

لم تنشأ بدعة القائلين باختلاف الجوهر على هامش المجادلات اللاهوتيّة المنصبّة كلّها على سرّ الثالوث الأقدس ، تلك المجادلات المفتقرة أصلاً إلى دقّة التعبير ووضوح الألفاظ المستعملة ووحدة المدلول في المفاهيم – فأريوس لم يميّز بين **الولادة والخلق** ؛ ولفظة « الشخص » Persona تُستعمَل مطابقة للفظة « الطبيعة » Natura – ؛ بل إنّ مجمع نيقية عينه كان المهد الحاضن لا للبدعة المذكورة وحسب ، وإنّما أيضاً لجميع البدع الثالوثيّة المتلاحقة ، مع العلم بأنّ بدعة القائلين باختلاف الجوهر لم تبزغ إلى الوجود إلاّ بعد مضيّ عقد ونصف على ختام أعمال المجمع النيقاويّ ، عندما ظهرت لأوّل مرّة كدعوة لها رئيسها ومعتنقوها في مدينة أنطاكية[١٥] ، مسقط رأس يوحنّا الذهبيّ الفمّ.

لم تنتهِ الأزمة الأريوسيّة مع انتهاء المجمع المسكونيّ الأوّل ، رغم اتّخاذ عدّة تدابير قانونيّة بحقّ المبتدع ومن حذا حذوه ، كالنفي والحرم.

فإنّ نيّات الأساقفة الأريوسيّين (١٦) قد أضمرت السوء تجاه بطريرك الإسكندريّة ألكسندروس ، الذي بدا في ختام جلسات المجمع المنتصر الأوّل وصاحب العقيدة القويمة والمبرَّر في جميع مواقفه ، إذ تمّت موافقة آباء المجمع على صيغته اللاهوتيّة «**مساوٍ للآب في الجوهر**» ، التي كانت نقطة الخلاف الأساسية بين الفريق الأرثوذكسيّ والفريق الأريوسيّ. لذلك راح الأريوسيّون يكيدون المكائد في الخفاء إلى أن نجحوا في استظهار الإمبراطور قسطنطين نفسه ، وحصلوا منه لا على عفوٍ عن نفي أريوس وأتباعه فقط ، بل أيضاً على عقد مؤتمر خاصّ بهم سنة **٣٣٥** في صور ، حكموا فيه على أثناسيوس ، البطريرك الجديد وساعد ألكسندروس الأيمن خلال نقاشات مجمع نيقية. كما تمكّن الأريوسيّون بسعيهم المنكر من عزل أساقفة أمّهات المدن ، وإحلال أساقفة أريوسيّين محلّهم ، ثمّ حصلوا على عقد مجامع فيها بطريقة متواترة (١٧) .

إلاّ أنّ الفريق الأريوسيّ لم يخرج من المجمع النيقاويّ مستأثراً وحده بمعارضة مقرّرات الآباء المستقيمي الرأي. فقد عرفت حقبة ما بعد المجمع أفرقاء آخرين كان لهم وزنهم أيضاً على الساحة اللاهوتيّة المعارضة ، وافتتانٌ أخّاذ فاق بدعة الأريوسيّين انتشاراً بين المؤمنين. لذلك ، يمكن الجزم بأنّ جبهة معارضي الإيمان النيقاويّ قد ولدت مجزّأة تتحكّم فيها الخلافات وتفصل بين فرقها آراء متضاربة ومتناقضة ، ممّا سيدعها تلاقي حتفها المقرّر والسريع . فقد عُرِف عن بعض أساقفة المجمع عدم قبولهم تعبير **مساوٍ للآب في الجوهر** – فكانوا من معارضي مقرّرات المجمع النيقاويّ – ؛ إلاّ أنّهم أقرّوا بألوهيّة السيّد المسيح وأزليّته – فكانوا بذلك من معارضي البدعة الأريوسيّة – .

لذا، فقد وجد دعاة هذا المنحى الجديد أنفسهم مضطرين إلى القول عن السيّد المسيح إنّه **مشابه للآب في الجوهر**(١٨)، مجتنبين بهذه العبارة بدعة أريوس من جهة، والشبهة التي كان يثيرها استعمال عبارة «مساو للآب في الجوهر» في تلك الآونة، من جهة ثانية. وثمّة فريق ثالث أيضاً ارتصف مع مناوئي القرارات النيقاويّة، وبنى على هذه المقولات جميعها رأياً مختلفاً ومتميّزاً. فقد ادّعى أصحاب هذا الفريق - وهم من الأساقفة ورجال الإكليرس أيضاً - أنّ الابن **مشابه**(١٩) للآب فقط، دون تحديد وجه الشبه في أيّ بعد من كيان المسيح هو، لأنّ إثارة الكلام على جوهر المسيح خطير وممتنع على قوى الإنسان. لكنّ هذه الفئة من معارضي مجمع نيقية لم تحظَ بمؤيّدين كثيرين في وسط شعب الله، نظراً إلى الغموض المتعمَّد في تحديد طبيعة الابن.

في خضمّ هذا الخليط من الفئات المتناحرة في ما بينها، والمعارضة لعقيدة الأساقفة الأرثوذكسيّين، نشأت زمرة **القائلين باختلاف الجوهر**(٢٠) الإلهيّ بين شخص يسوع المسيح وأبيه السماويّ. لذا، يمكن اعتبارها فريقاً أريوسيّاً لمعارضة معتنقيها لمقرّرات مجمع نيقية، ولالتحامها في بدء انطلاقتها بالفريق الأريوسيّ. لكنّها لم تندمج وتنصهر فيه لاختلاف عقائدها عن دعوة الأريوسيّين، وتميّزها بالتصلّب والتطرّف والتشدّد في تحديدها لهويّة «الابن». فيسوع مختلف كلّ الاختلاف عن الآب ولا **تساوي** بين جوهر الاثنين أو **شبه** بينهما. وقد تلقّت بدعة القائلين باختلاف الجوهر تسميات عديدة: فقد دُعوا بالأفنوميوسيّين نسبة إلى أفنوميوس، أحد زعيمي الحركة، على غرار الأريوسيّين نسبة إلى أريوس، أو بالإيتيوسيّين نسبة إلى إيتيوس وهو الزعيم الآخر للحركة(٢١).

بدعة القائلين باختلاف الجوهر

إنّ تأريخ بدعة القائلين باختلاف الجوهر مرتبط وثيقاً بحياة زعيميها ، كما هو شأن البدع الأخرى. فعلى أثر تعليم ما يقوم بنشره على الناس أحد الأشخاص ، ومع انضمام متحمّسين إليه ومحاربة آخرين له ، تنشأ جماعة خاصّة تتحلّى بميّزات فريدة وتبدأ باحتلال مكانها في قلوب العامّة والمجتمع البشريّ ، ثمّ ما تلبث أن تلج رويداً رويداً سجلاّت الأحداث التاريخيّة. أمّا بدعة القائلين باختلاف الجوهر فتدين بوجودها إلى رجلين هما إيتيوس وتلميذه أفنوميوس.

أ - لمحة تاريخيّة موجزة :

نشأ إيتيوس في أنطاكية ، مدينة الخليط العرقيّ والمزيج الثقافيّ والتلاقي الحضاريّ ومصبّ الديانات جميعها [٢٢]. انصرف وهو شابّ إلى ممارسة التجارة ، فانضوى تحت لواء الباعة المتنقّلين وتعرّف على أحوال معيشتهم ، وسار مع القوافل بين كيليكية السوريّة ، موطنه الأصليّ ، وبلاد مصر الزاهرة. ثمّ هجر بعد فترة هذه المهنة ليصبح فنّاناً ومهرّجاً يضرب في الأرجاء عارضاً على الفضوليّين بضاعته وحركاته وفنّه. ولكنّ السأم ما لبث أن دبّ إلى هذا النمط من الحياة فعافته نفسه ولم ترغب به من بعد ، وأصبح يلتفت أكثر إلى الاهتمام بالموضوعات العقائديّة التي رآها تستشري في أنطاكية ، ويتحمّس لها كبار الرجال والولاة والدوائر الإمبراطوريّة. فقصد الإسكندريّة لتعلّم فنون الكلام والمنطق وبراعة المحاجّات والمناقشات. ولمّا عاد إلى أنطاكية كان قد أصاب من مبتغاه وطراً ، فراح يلقي المواعظ ويكشف بشجاعة عن علمه ، حتّى تناول كلامه البحث في طبيعة السيّد المسيح ، محاولاً أن

يبني في آن واحد معاً على أسس الأريوسيّة نظرته الجديدة إلى الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس [٢٣] ، وأن ينفصل عنها بتبنّي مواقف مختلفة وجديدة [٢٤] . وبالرغم من ماضيه السالف الذكر ، فقد توصّل إلى نيل الدرجة الشمّاسيّة على يد أسقف أنطاكية الأريوسيّ لاونديوس ، الذي أُعجِب به وقرّبه . ولكنّ لاونديوس هذا ما لبث أن فارق الحياة ، فخلفه على كرسيّ أنطاكية أفذوكيوس المعروف بتحمّسه الشديد للمذهب الأريوسيّ الصرف . وإذ وجد هذا الأسقف في مربوب سلفه تلميذاً غيوراً ومندفعاً إلى نصر البدعة الأريوسيّة عمل على التعاون معه في محاربة التحديدات النيقاويّة ، وقرّبه منه وكافأ كلّ من اتّكل عليه في إنجاح مسعاه . وهكذا ، عندما عُقِد مجمع أنطاكية الأريوسيّ برئاسة الأسقف أفذوكيوس ، عام ٣٥٨ ، هبّ إيتيوس بكلّ حماسة للدفاع عن التعليم الأريوسيّ ضدّ فريق أريوسيّ آخر أكثر اعتدالاً ، هو فريق القائلين بالشبه في الجوهر بين الآب والابن ؛ وتمكّن من القضاء في مرافعته على أنصار هذا الفريق . وكان أفنوميوس تلميذ إيتيوس مشاركاً في أعمال هذا المجمع .

لم يستكن أنصار الفريق الأريوسيّ المقهور للأمر الواقع ، بل عملوا على عقد مجمع آخر يضمّ عدداً أكبر من الأساقفة المناوئين لمقرّرات نيقية ، وعُقد المجمع الأريوسيّ الجديد في مدينة سيرميوم من العام نفسه ، أي في سنة ٣٥٨ . وفي أثناء المناقشات ، تأزّم الوضع جدّاً بين صفوف الأريوسيّين وتضاربت آراؤهم . لكنّ الكفّة رجحت في النهاية لصالح الفريق القائل بمبدإ « الشبه » بين الآب والابن . وإذ كان كلّ من أفذوكيوس وإيتيوس منتصباً في عداء لنظرية الشبه ، فقد نفي إيتيوس

ونقل أفذوكيوس من رئاسة أسقفيّة أنطاكية إلى رئاسة أسقفيّة القسطنطينية.

نتيجة لذلك، بدت البدعة الجديدة مهدّدة بالزوال إذ فقدت قائدها ورئيسها لولا تولّي أفنوميوس، تلميذ إيتيوس، المهامّ في رعاية شؤونها وبعثها إلى مسرح الأحداث مجدّداً. فقد انتقل أفنوميوس من أراضي مقاطعته في الكبّاذوك إلى العاصمة الإمبراطوريّة، القسطنطينيّة، أملاً في الحصول على مهنة تدرّ عليه مالاً وافراً، ويصيب منها مركزاً باهراً يرتقي به اسمه إلى عالم الشهرة. ولكنّ مسلكه خلال هذه المدّة تلوّث ببهرجة الحياة الرخيصة (٢٥). فما كان منه إلاّ أن عاد إلى موطنه الأصليّ وأرض أجداده. هناك، عادت إليه فكرة ارتياد المدن الكبرى حيث الأمل أكبر في النجاح وحيث المستقبل اللامع أسهل، فوقع اختياره على مدينة الإسكندريّة، بفضل صيت إيتيوس وشهرة أفكاره من جهة، ولإقامة الأسقف جاورجيوس الكبّاذوكيّ مواطنه في هذه المدينة، من جهة أخرى. وفي أثناء السفر، حلّ أفنوميوس في مدينة أنطاكية لبضعة أيّام تعرّف فيها على الأسقف الأريوسيّ سيكونديوس الذي حرم في مجمع نيقية المسكونيّ الأول (٢٦)، فلازمه عازفاً عن مواصلة سبيله حتّى نهايته، وأمكنه تحقيق حلم نفسه الذي كانت تصبو إليه منذ زمن سحيق، إذ تعرّف هناك على إيتيوس وأصبح كاتم أسراره الخاصّ، ومدبّر أعماله في أوقات غيابه.

وفي عام ٣٥٨، رُسِم أفنوميوس شمّاساً على يد أفذوكيوس، مكافأة له على اشتراكه في مجمع أنطاكية وعلى كونه الظهير الجديد لإيتيوس. ولكنّ أفنوميوس إذ رأى حُماة البدعة الأريوسيّة ينهارون أمام

فريق أكاكيوس، وأنصار مذهب القائلين بالشبه في الجوهر بين الآب والابن يتداعون أو ينخرطون في الفريق المنتصر، اشترك دون تباطوء في مجمع آخر عقد في سلوقيا عام **٣٥٩**، إلى جانب أصحاب المذهب القائل حصراً بالشبه بين الآب والابن، ضدّ الذين لا يزالون على موقف المشابهة في الجوهر. فحصل كجزاء على نشاطه الغيور على الدرجة الأسقفيّة، وعيّن على كرسيّ قيزيقيا في ميسيا، بعد عزل الأسقف النيقاويّ أليفسيوس. إنّ مواقف أفنوميوس المواربة هذه تغني عن متابعة البحث في سيرة حياته.

لكنّ الخلافات بين أفنوميوس وأفذوكيوس ما لبثت أن دبّت في علاقاتهما التي كانت مبنيّة لا على روح الأخوّة الصادقة في المسيح، بل على مصالح انتفاعيّة وأنانيّة. وقد بلغ الشقاق بينهما حدّاً أصبح معه الانفصال خير حلّ لكلا الطرفين، ومردّ كلّ ذلك لسببين: أوّلهما أنّ أفذوكيوس لم يَفِ بوعده لأفنوميوس بالحصول له على عفو عن معلّمه المنفيّ بقرار من الإمبراطور قونستانس [٢٧]، وثانيهما أنّ أفنوميوس لم يعد في مقدوره التكتّم طويلاً على عقيدته اللاهوتيّة وعقيدة معلّمه إيتيوس. فتملّقه لأتباع مذهب «الشبه» بات يضيّق عليه الخناق بعد نيله الدرجة الأسقفيّة، وراح يضعه أمام أحد حلّين: إمّا السير مع المذهب المذكور والدعوة بدعوته جهاراً، وإمّا اتّخاذ موقف لاهوتيّ بيّن. ومن الطبيعيّ أن يختار أفنوميوس الحلّ الأخير. وهكذا، قام أفنوميوس برسم أساقفة موالين له منهياً بذلك كلّ ارتباط بين دعوته والدعوات الأخرى. وأسمى بدعته بالافنوميوسيّة وتبّاعه بالقائلين باختلاف الجوهر [٢٨].

٢ – اللاهوت العقائديّ :

لقد بنت بدعة القائلين باختلاف الجوهر عُـمُـدَ لاهوتها كلّه على أساسات البدعة الأريوسيّة لمصاهرتها إيّاها على أكثر من صعيد ، سواء في حيّز انتشارها أم في صياغة مفاهيمها اللاهوتيّة . وقد توجّب نتيجة لذلك تطابق البناء العقائديّ الذي شيّده رائدا البدعة لأنصارهما مع الخطوط الكبرى التي تؤلّف اللاهوت الأريوسيّ. لذلك نجد لا محض تقارب وحسب في نقاط العقيدة بين البدعتين ، وإنّما تماثلاً قويّـاً أيضاً ، ووحدة موضوعيّة وإيديولوجيّة تحمل القارىء على الشعور بأنّه النهج ذاته والتفكير عينه لدى الفريقين. أمّا الاختلاف بين الدعوتين فينشب في تفاصيل دقيقة يمكن حصرها في نقطتين اثنتين نشير إليهما بعد استعراض لاهوت البدعة القائلة باختلاف الجوهر.

أ – عقيدة الثالوث الأقدس

يقول معجم اللاهوت الكاثوليكيّ[٢٩] إنّ مقارنة **قانون إيمان** أريوس الذي قدّمه إلى ألكسندروس[٣٠] **بقانون إيمان** أفنوميوس الذي ضمّنه عصارة تفكيره اللاهوتيّ تكفي القارىء دلالة على اقتباس هذا الأخير ركائز معتقده وعقائد بدعته عن النظرة الأريوسيّة ، حتى إنّه يمكن القول عن البدعة الأفنوميوسيّة إنّها حزب أريوسيّ.

ينطلق أفنوميوس في تحديد مفهومه لعقيدة الثالوث الأقدس من فكرة الجوهر الأسمى الذي يستحقّ وحده أن يُكرَّم إلهاً ، باستثناء جميع الجواهر الأخرى. ونقطة الانطلاق هذه في صوغه عقيدة بدعته متطابقة ونظرة فلسفيّة هلّينيّة تؤكّد أحاديّة الكائن الحامل الجوهر الأسمى ، بحيث لا يكون هناك عدّة عوارض تنطوي على الجوهر نفسه ،

كما هو الحال في الدركات السفلى من عالم الموجودات. في دائرة الألوهة، لا يمكن النصاعة والكمال إلاّ أن يتكشّفا منفردين بذاتيهما، دون أن تثقّل عليهما محمولات المادّة وخصائص الجواهر المؤلّفة لها. لذلك، يشدّد أفنوميوس حذو أريوس على عدم التفريق بين مفهومي «الجوهر»(٣١) و«الأقنوم» (أو الشخص)، مخطّئاً هكذا النظرة النيقاويّة المعبّرة عن الإيمان الأرثوذكسيّ.

في عرف أفنوميوس ينطوي الجوهر الأسمى على «**بساطة**» كليّة تنفي عنه كلّ تعقيد أو تركيب - وفي هذا سموّه - فيأبى أن يقبل محمولاً يفسّره أو ميزة تبيّنه؛ كما أنّه بعيد الصلة عن أيّ مبدإ آخر للوجود، مهما عظم شأنه. ويمتدّ فكر أفنوميوس في استقصائه تحديد هذا الجوهر السامي إلى حدّ حصره بمفهوم واحد يعبّر لمجرّد التفوّه به عن الذات الإلهيّة: «**اللاتناسليّة**» Ἀγεννησία. فمتى أدرك المؤمن قوّة هذا المفهوم والمعطيات الأزليّة الأخرى الملتحمة به ضمناً، أمكنه إدراك جوهر الألوهة واستخلاص جميع النتائج اللاهوتيّة المترتّبة عليه، بحيث لا يمكن وجود غموض من بعد في فهم المؤمن جوهر الإله الذي يؤمن به(٣٢). ولكن، ما هو مصدر وحي أفنوميوس في اكتشافه هذا التحديد؟ إنّه، ولا غرو، أريوس.

لقد كان أريوس قد استعمل في مرافعته اللاهوتيّة أمام مجمع الإسكندريّة الذي عقد حوالي سنة **٣٢٠** لدرس نظريّته تعبيراً جديداً في معرض كلامه على الآب، نجد صدى مدلوله يتردّد أيضاً لدى جميع الذين تتلمذوا على يد الكاهن لوقيانوس الأنطاكيّ. فقد قال عن الأقنوم الأوّل مقالاً يحصر الألوهة به ويجرّدها عن الأقنومين الآخرين: «نعترف بإله واحد، هو وحده **غير مولود** (باليونانيّة

ἀγέννητος ، وعن هذا التعبير نحت أفنوميوس تحديده العقائديّ) ، وحده أزليّ ، وحده **لا بدء له** (باليونانيّة ἄναρχος) ، وحده الإله الحقّ... إله الناموس والأنبياء والعهد الجديد ، الذي ولد ابنه قبل الدهور والأزمان(٣٣) . والخلاصة التي تفقأ العيون وضوحاً أنّ الإله الحقّ ، الواحد والسرمديّ هو الآب لكونه **غير مولود وغير ذي بدء** في الزمن ، بخلاف الابن تماماً ، الذي وإن دُعي «ربّاً» في الكتابات الإنجيليّة هو من جوهر مختلف ، لأنّه «مولود» وبادىء وجوده في زمن إلهيّ. ومن البديهيّ أن يستنتج المرء كذلك اختلاف جوهر الروح القدس عن جوهر الآب والابن ، لأنّه دخل دائرة الخلاص بعد الابن !

ولكنّنا نلحظ في تفكير أريوس انزلاقاً تدريجيّاً يبدأ منذ إثارة الكلام على الآب باستعمال تعبيرَي «**غير مولود**» و«**لا بدء له**» ، وينتهي بإضفاء صفة الألوهة عليه حصراً ونفيها عن الأقنومين الآخرين. فما هو منشأ هذا الانزلاق؟ إنّنا نعتقد أنّ المدلول الثنائيّ لكلّ لفظة قد أدخل على تفكير أريوس تشوّشاً وبلبلة حملاه على اختيار تأكيده. فتعبير ἀγέννητος يشير إلى مدلولين: إنّه يعني أوّلاً «**غير مولود**» بنقيض ما هو مولود ؛ وقد يعني أيضاً ثانياً «**غير مخلوق**» بنقيض ما هو مخلوق. وغنيّ عن البيان كم هو شاسع الفرق بين المعنيين اللذين إنّما تدلّ عليهما اللفظة الواحدة: ἀγέννητος ؛ وشتّان ما بين «الولادة» و«الخلق» ! لكنّ صمام الأمان في استعمال هذه اللفظة وتطبيقها على حالة «الكلمة الأزليّ ، الابن الذي قبل الدهور» قد أفلت باختيار من أريوس واع ، إذ لا يرى هو نفسه من فارق استعمال أحد المدلولين مكان الآخر ، في ما يخصّ الابن يسوع المسيح. أمّا

استدلال أريوس الفلسفيّ في اختياره هذا فيرتكز على نظريّة أخرى تتعلّق بتحديد فكرة النسل والولادة. فبالنسبة إليه كلّ ولادة، لا الولادة البشريّة وحسب، يقترن بها اقتراناً ضمنيّاً **بدء للوجود محدّد**، أو **إحداث مباشر له**، بحيث إنّ المولود لا يكون متمتّعاً بوجوده، قبل أن يولد، على قدم المساواة مع من أوجده أو ولده؛ وإلاّ ما معنى كلمة الولادة إذا كانت وجوداً سابقاً؟ لذلك، يؤكّد أريوس أنّه ليس صحيحاً الادّعاء بأنّ الابن بعد أن كان موجوداً لدى الآب قد وُجِد ثانية **مولوداً** ابناً. فإنّ التكلّم بهذا الشكل – حسب رأيه – يجزّىء وحدانيّة المبدإ إلى وجودين آنيّين، والأزليّة إلى صيرورة، والثبات إلى تحوّل؛ لأنّ ابن قبل الولادة المتميّز عن أبيه سيشاركه في جوهره الفريد، لتمتّعه وإيّاه بالصفات ذاتها. وهكذا، إذا ما انتقلنا بالتعابير البشريّة الخاضعة للحدود الزمنيّة إلى الحديث عن الذات الإلهيّة الموجودة خارج الزمن، وإذا ما كان فرضاً علينا المحافظة على معنى الولادة الصحيح كبدء في الوجود، تأكّد لنا أنّه سواء قولنا عن الابن إنّه **مولود** قبل الدهور والأزمان، أم إنّه **مخلوق** قبل الدهور والأزمان، لأنّ اللفظتين تشيران آنذاك إلى مدلول واحد – كما يعتقد أريوس – إذ المهمّ صون فكرة النسل سليمة ممّا يناقض محتواها. وهكذا، تمسّك أريوس تمسّكاً مهووساً بهذه النتيجة التي توصّل إليها تفكيره، وحرص على التشديد أنّ الابن المولود هو مخلوق، وبالتالي مخالف للآب في جوهره..

أمّا التعبير الآخر ἄναρχος المؤلّف أيضاً دعامة قويّة لانزلاق تفكير أريوس من حيّز الخصائص إلى الجوهر، فملتحم النتيجة أيضاً بالتعبير السابق. إنّه يشير إلى مدلولين: الأوّل «من دون ابتداء»،

بنقيض ما يبدأ في الوجود ، والثاني «من دون مبدإ» بنقيض ما يستمدّ وجوده من آخر. وقد حافظ أريوس في تطبيق هذا اللفظ الثنائي المدلول على الابن ، على العلاقة نفسها التي جمع فيها بين معنيي ἀγέννητος : فمن بدأ وجوده في الزمن استمدّ مبدأه من آخر. والنتيجة تقود إلى المغزى عينه ، لأنّ من يستمدّ مبدأه من آخر لا يمكن أن يكون من ذات جوهره. وبمعنى آخر ، فقد انتقل أريوس من واقع الكلمة **المولود** الذي دخل الزمان **وبدأ** حياته كابن ، إلى استخلاص ميتافيزيقيّ رفيع الشأن يجعل الكلمة **مخلوقاً** والابن الأزليّ كائناً **استجدى** كيانه.

هذا هو المصدر اللاهوتيّ الذي غرف منه أفنوميوس جبلة بدعته العقائديّة. لقد لخّص تفكير أريوس التحليليّ ، وجمع مفاهيمه التفصيليّة وسكبها في واحد. وإذ كان مؤمناً بفكرة عدم الفصل بين الجوهر والأقنوم ، فقد أنزل هذا المفهوم الذي خلص إليه في هذا الجوهر ، فحصل على تحديد واحد للإله الواحد : **اللاتناسليّة**. واستناداً إلى هذا التحديد ، أعطى أفنوميوس شكلاً واضحاً عن تصوّره للثالوث الأقدس : إنّه مؤلّف من الآب الذي هو وحده الإله الحقيقيّ لكونه غير مولود ، بخلاف الابن الذي لا يمكنه أن يكون إلهاً كالآب ، لأنّه مولود لا ولادة ناجمة عن جوهر الآب – لأنّ الآب غير مولود ولا يمكنه أن يلد – بل ولادة هي أحرى أن تدعى خلقاً ، لأنّ إرادة الآب هي التي أوجدت الابن. وخاصّةُ الابن هذه المميّزة لجوهره ، والقائمة على كونه قد أبدعه الآب مباشرة ، هي التي خوّلت الابن صفة «ربّ» إزاء باقي الكائنات. فأصبح قادراً بدوره على خلق العوالم الأخرى الروحيّة والمادّيّة. وإنّ أوّل ما خلق الابن الروح القدس الذي تمتّع

نتيجة لهذا الإنعام من قبل الابن بدرجة الحفاظ على الاتّصال بدائرة الألوهة ، عن طريق القداسة التي يعمل على بثّها في الخلائق الأخرى. ولكنّ طبيعته لا يمكن أن تقاس بطبيعة الابن ، كما أنّ طبيعة الابن مختلفة عن طبيعة الآب الذي هو الجوهر الأسمى.

إنّنا نرى أيضاً أنّ أفنوميوس يفصل في صميم الذات الإلهيّة بين مفهومين اثنين : «**الجوهر**» و «**القدرة**». فالجوهر غير منقسم ولا يمكن المشاركة فيه أو تناقله ، وفيه تنحصر الألوهة التي يحملها الآب وحده. أمّا «**القدرة**» التي يمتلكها الآب أيضاً فهي التي تنتقل من الآب إلى الابن إلى الروح القدس. فإذا ما كان الابن قد دعي إلهاً وربّاً ، فلأنّه استطاع القيام بكلّ ما يفعله الآب. وإذا ما كان الروح القدس **قادراً** على تثبيت المؤمنين في القداسة والحقّ ومعرفة الآب ، فلأنّه مشارك أيضاً في هذه القدرة عينها. أمّا الجوهر الإلهيّ فهو وقف على الآب وحده دون سواه ، الذي هو مصدر الابن والروح القدس ، وخالق الأوّل مباشرة والثاني بطريقة غير مباشرة ، ولا نصيب لأحد أن يشاركه فيه. لذلك ، دعي أتباع أفنوميوس بالقائلين باختلاف الجوهر، لأنّ معلّمهم يرفض رفضاً باتّاً فكرة إله واحد أو جوهر واحد في ثلاثة أقانيم.

ب – عقيدة التجسّد الإلهيّ

لقد حدّد أفنوميوس في لاهوته أنّ الآب هو وحده الإله ، أمّا الابن والروح القدس فهما خليقتان بالتتابع وبدرجة تنازليّة ، استحقّا مرتبة علويّة وتكريماً خاصّاً من لدن الآب الذي أشركهما بنفحة إلهيّة ، فرفع مستواهما دون الخلائق البشريّة. لقد كان سهلاً على تفكير أفنوميوس وصف الآب والتحدّث عن الروح القدس : فقد نزّه الأوّل تنزيهاً مطلقاً عن الاتّصال المباشر بالمادّة وجعله سجين لفظة(٣٤) ، وأفرد

للثاني دور وسيط هو أحقّ ما يقال فيه الحدّ الفاصل بين الألوهة والناسوت ، إذ ربطه بالاهتمام بالنفس البشريّة. وما كان هذا الأمر ليسهل عليه مع الابن لولا إعمال الفكر ثانية في استنباط طرائق فلسفيّة مجرّدة تمكّنه من شرح واقع الابن المزدوج ، وواقع إله ليس هو بالإله وواقع إنسان وما هو بالإنسان !

فبعد أن جرّد أفنوميوس الابن عن وحدة الجوهر مع الآب ، وبعد أن قال بشأنه إنّه غير مشابه له في أيّ شيء لأنّه خليقة كباقي الخلائق أمام عيني الآب ، يعود فيكسبه بعض صفات الألوهة ويشركه بجذر فلسفيّ ببعض الخصائص التي تميّز الآب. إنّ الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد يتكلّم مراراً عن «حكمة» الله و «قدرته» الفائقة الوصف ؛ وتردّد أسفار الحكمة هاتين اللفظتين ترديداً متواتراً لتبيّن تجلّي جوهر الله الذي «يدبّر جميع الأمور بحكمة» ، حتّى إنّ الشكّ لا ينتابنا إن فكّرنا في أنفسنا أنّ أولى صفات الآب هي حكمته وقدرته. ومع ذلك ، فإنّنا نجد في كتابات العهد القديم إلماحاً سرّيّاً إلى أنّ حكمة الله هي ابنه ، الأقنوم الثاني ، وفي كتب العهد الجديد ولا سيّما عند بولس إشارات عديدة وواضحة إلى أنّ الربّ يسوع هو حكمة الله (١ كو ١ : ٣٠). فالحكمة الإلهيّة التي كانت تتبدّى لقبائل العهد القديم في أحداث تاريخيّة تنمّ عن افتقاد الله لشعبه قد أسفرت في العهد الجديد عن وجهها واستبانت بهيئة بشر. فالتجسّد الإلهيّ الذي هو يسوع المسيح برهان آخر على وحدانيّة جوهر الابن والآب. وقد كان لزاماً على أفنوميوس إيجاد النظرة البديلة لهذه الحقيقة بحيث لا يقع ثانية في ما حاول فكره تجنّبه لدى تفسيره عقيدة الثالوث الأقدس.

لذا ، فقد ابتدع أفنوميوس ابتداعاً متحذلقاً عندما رأى أنّ الحكمة حكمتان : الأولى ملازمة جوهر الآب وأزليّته وهي التي أخطرت إرادته خلق الابن ؛ والثانية هي حكمة الابن التي حصل عليها لكونه قد لقي وجوده بفعل هذه الحكمة الأولى. وهكذا ، فالابن الذي هو خليقة الآب قد استطاع أن يمسي إلهاً تجاه الخلائق الأخرى لمجرّد كونه الأوّل الذي خرج من فكر الآب. كما أنّه استطاع أيضاً أن يتّصف «بالحكمة» و «القدرة» ، هاتين الصفتين الإلهيّتين، للسبب ذاته. وغنيّ عن الاستفاضة في شرح حيازة الابن «القدرة الإلهيّة» ، إذ يطبّق عليها التفسير نفسه. بهذه الطريقة أكمل أفنوميوس تنجية عقيدته من فكرة التساوي في الجوهر، لا من فكرة التشابه كما أراد. وبات التجسّد صناعة إلهيّة لا عطاء ذاتيّاً ، والخلاص عملاً منتقَصاً لا فداء كاملاً. ويتابع أفنوميوس عند هذا الحدّ تنظير عقيدة التجسّد ، فيقول إنّ «الحكمة» هي التي ملأت في شخص يسوع المسيح حيّز النفس البشريّة. فالكلمة اكتفى بأن استعار جسداً بشريّاً لا نفس فيه ، وحلّ في هذا الجسد. لذلك نجد – يجد أفنوميوس – أنّ في الكتابات الإنجيليّة آيات ترد على لسان يسوع يؤكّد فيها عدم معرفته التامّة للآب ، وجهله لبعض نقاط في تدبيره كحضور «الساعة».

لقد نفى أيضاً أفنوميوس عن الابن المتجسّد اتّخاذه نفساً بشريّة لسببين : الأوّل تجنّباً لمعضلة تفسير حلول روحين محدودين في جسد واحد ؛ والثاني اتّقاء من الغوص في إجابات على مسائل مرتهنة بأوضاع النفس البشريّة. وهكذا ، يجد المبتدع نفسه طليقاً في أن يؤكّد استعلاء الشخص يسوع المسيح تجاه الكائنات الأخرى ، لأنّه ذو مصدر إلهيّ مباشر، وتأنّس الكلمة وإدراكه التامّ لأوضاع الحالة الانسانيّة ، لأنّه

اتّخذ هذه الحالة وعاش زمناً فيها. ولكن ما هي نتائج هذه الرؤية؟

ثمّة نتيجتان في رأينا تترتّبان على هذه الطريقة في شرح عقيدة التجسّد الإلهيّ. تستند الأولى منهما إلى واقع التجسّد، والثانية إلى عمل الفداء الذي هو غايته. فبينما يرى أفنوميوس أنّ هذه الطريقة في «تركيب» الكلمة المتجسّد من نفس إلهيّة وجسد بشريّ تحافظ على وحدة الشخص وسلامة الحقائق الواردة في الإنجيل(٣٥) وإمكانيّة إدراكها في العقل البشريّ، إلاّ أنّها تبدو في شكلها غريبة عن المعطى الإنجيليّ الصحيح، ومطعّمة بذهنيّة إغريقيّة وثنيّة. فأشباه الآلهة في الميثولوجيّات اليونانيّة القديمة هم أنصاف آلهة لأحد محتدهم وأنصاف بشر في آن واحد معاً. وغنيّة هي تلك الآداب الهلّينيّة التي تروي أقاصيص بطولات عن مثل أولئك الناس. فأفنوميوس إذ يتكلّم عن الابن المتجسّد بهذه الطريقة، إنّما يجعل منه أحد تلك الوجوه الباهرة. ثمّ إن تأمّلنا مليّاً في حقيقة الكلمة المتجسّد كما يصوّره لاهوت أفنوميوس، لوجدنا أنّ التجسّد غير كامل، لغياب النفس البشريّة عنه: فليس المتأنّس إنساناً كاملاً في حالة التجسّد ولا الإله إلهاً. بل جلّ ما هنالك تآلف عنصرين متمايزين في كائن واحد. وأخيراً، إنّ التجسّد الإلهيّ سرّ في حقيقته الذاتيّة، وقد حاول أفنوميوس اغتصابه مدّعياً تفوّق المدركات العقليّة المطلق فأفضى إلى تصوير مسخ أكثر منه إنساناً. أمّا النتيجة الثانية فهي انتزاع الصبغة الإلهيّة عن عمل الخلاص. لأنّ الفادي الذي تجسّد وتألّم ومات وقام يبقى خليقة في نظر أفنوميوس، وإنّما على أعلى المستويات. وحسب رؤية أفنوميوس، سيبقى العالم المخلّص غريباً عن الإله الحقّ الذي أبدع الكلمة فقط، ثمّ توارى عن كلّ عمل آخر تاركاً كلّ شيء بين يديه. لكنّ السؤال الذي

يطفر على شفاهنا هو: «هل كان عمل الفداء هذا في **حكمة** الآب أم الابن؟». إنّ الجواب يحتّم ثانية تساوي جوهر الاثنين، لشدّة كمال هذه النعمة، نعمة الخلاص الذي تمّ لنا نحن البشر بيسوع المسيح.

جـ - الخلاف اللاهوتيّ بين البدعتين: الأريوسيّة والأفنوميوسيّة

ليس من قبيل الاتّفاق أن يشاء أفنوميوس للاهوته اختلافاً أصيلاً مع اللاهوت الأريوسيّ الذي أمّن له ركيزة قويّة ووحياً غنيّاً. فهل كانت مشيئة أفنوميوس إيجاد سبيل للاستقلال بدعوته والانفصال عن المذهب الأريوسيّ فاختلف عنه في بعض تفسيراته؟ أم إنّ مرجع هذا الاختلاف ذو طابع احترازيّ، ولا سيّما وإنّ الأريوسيّة أوشكت أن تغزو العالم الرومانيّ آنذاك؟ أم يكون سبب الاختلاف رؤية لاهوتيّة مغايرة حقّاً للرؤية الأريوسيّة؟ إنّ الإجابة على هذه الأسئلة تستوجب تدقيقاً في الأحداث التاريخيّة وبحثاً علميّاً يتناول شتّى المواضيع والأشخاص الذين رافقوا وسبقوا وأعقبوا تلك الحقبة، ومطالعة كتاباتهم وتآليف خصومهم ممّا يستأهل إفراد مجلّد ضخم لتحقيق هذه الغاية. أمّا نحن فنقصر بحثنا هنا على نقطتين عقائديّتين اختلفت الدعوتان في النظر إليهما.

تتعلّق نقطة الخلاف الأولى بطبيعة الابن الإلهيّة. فبينما تنطلق الدعوتان الأريوسيّة والأفنوميوسيّة من نقطة بداية واحدة هي ألوهة الآب فقط، وما إن تنتقلان إلى الابن للإحاطة بجوهره حتى ترسمان كلّ منهما نهجاً مختلفاً عن الأخرى، تترتّب عليه بالتالي نتائج مختلفة، وإن آلت النتيجة بينهما إلى الغاية ذاتها. في نظر أريوس، لم ينل الابن صفة الألوهة إلّا في ختام رسالته التي انتدبه إليها الآب. فبعد إتمام

المسيح رسالته خير إتمام، وتحقيق مشيئة الآب - «لتكن مشيئتك» - وتحمّله الآلام بكلّ طاعة واستسلام وقوّة إرادة، كافأه أبوه السماويّ مكافأة حسنة على فضيلته، «فأقامه من بين الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماوات، وأخضع تحت قدميه كلّ سلطان ورئاسة». فالشخص يسوع المسيح هو إذاً حسب هذه النظرة محض خليقة بشريّة قد اصطفاها الله بعنايته الخاصّة وأيّدها بالقدرة على صنع العجائب، ثمّ إذ عملت هذه الخليقة بحسب إرادة الله أثابها جزاء حسناً على عملها وأغدق عليها صفتي الألوهة والتبنّي. فليس يسوع المسيح إذاً ابناً للآب بالطبيعة والولادة الروحيّة، وإنّما هو ابن بالتبنّي ومطابقة الإرادة. ولكنّ أريوس يذكر أنّ الآب لم ينتظر نهاية العمل الخلاصيّ كي يكافىء الابن يسوع المسيح، بل هو قد صيّره إلهاً وابناً منذ خلقه في بداية الكون، قبل تجسّده، مستبقاً ببصيرته الإلهيّة حياة الابن الزمنيّة كلّها. بيد أنّ الربّ يسوع المسيح الابن الوحيد يبقى خليقة مثل باقي الخلائق بالنسبة إلى الآب الذي هو وحده الإله الحقّ والسرمديّ.

أمّا أفنوميوس فقد رأى أنّ الابن قد أصبح إلهاً لا بنتيجة استحقاقات أفعاله، بل من جراء تلقّيه المباشر لوجوده من الآب. فهو إله منذ اللحظة التي وجد فيها، ولم يكن قبل أن تنتشله إرادة الآب من العدم. إنّ رؤية أفنوميوس هذه تتجنّب نسب العلم المسبق إلى الآب للمحافظة على بساطة جوهره. وتهدف إلى ابراز استعلاء الآب المطلق على الابن الذي يبدو في ألوهيّته مستسلماً لإرادة خالقه، وغير قادر على استحقاق كيانه كما هو في ذاته. أمّا التجسّد والخلاص فلا ينعمان بكبير اهتمام حسب هذه النظرة اللاهوتيّة، لأنّ الهدف منصبّ أكثر على تفسير جوهر الله منه على اتّصاله بالعالم.

أمّا نقطة الخلاف الثانية فتبدو ذات صلة بالأولى ، وتتركّز حول معرفة الله معرفة تامّة . ففي نظر أريوس ، لا يستحيل فقط على الإنسان أن يدرك الله في ذاته ، وإنّما أيضاً على الملائكة ورؤساء الملائكة والابن أيضاً . فبما أنّ الابن هو خليقة قد مجّدها الله لسموّ فضيلتها فأصبحت إلهاً ، فهو إذاً ذو طبيعة قابلة للتغيّر والتحوّل ، وبالتالي يتعذّر على الابن إدراك جوهر الآب الثابت وسبر أسرار حكمته . وإذا ما استحال هذا الأمر على الابن ، فكم بالأحرى على الكائنات الأخرى التي هي دونه مرتبة ! بيد أنّ أفنوميوس يرى أنّ معرفة الآب ممكنة ، بل يؤكّد أيضاً «أنّ الله لا يعرف عن ذاته أمراً يزيد على معرفتنا له...» . ويلوم فيلوستورجيوس تلميذُ أفنوميوس أريوسَ وأفسيبيوسَ أسقف قيصريّة على تعليمهما تعليماً مخالفاً . فالله – حسب أفنوميوس – خالٍ من كلّ تركيب ، وجوهره ذو بساطة كلّيّة إلى حدّ أنّه محصور في مفهوم واحد ، هو أنّه غير مولود . فمعرفة الإنسان التامّة لمعنى هذا التعبير كافية للإحاطة بكلّ جوهر الباري .

إنّ هذه النقطة الأخيرة من تعليم البدعة الأفنوميوسيّة لتؤلّف موضوع عظات الذهبيّ الفمّ الخمس ، التي عرّبناها في الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب . لقد عرف القدّيس يوحنّا دعوة البدعة الجديدة بكلّ تفاصيلها التاريخيّة واللاهوتيّة ، إذ قد عاصرها وعاش معها جنباً إلى جنب في مدينته أنطاكية . لذا ، فقد فرز لمحاربتها كلّ طاقات علمه الدنيويّ والروحيّ ، غير موفّر فرصة للتحدّث عنها والتشهير بها والتحذير منها !

الحواشي

(١) عرفت الكنيسة في مهدها – اي في زمان الرسل – نشوء بدع عديدة في حضن جماعة المؤمنين، لا يخفى بعضها على قارىء رسائل القديس بولس (١ كو: ١٩؛ ١٥:١٢؛ في ٣:١٨؛ ٢ كو ٢: ١٦ – ١٩؛ تيم ٤:١؛ ٢ تيم ٣:٥)، وسفر أعمال الرسل (راجع أع ٨:١٨؛ ١٥:١، ٥، ٢٤). وقد توالت هذه الابتكارات الخاطئة على مرّ الأجيال والقرون اللاحقة، ممّا استدعى انعقاد المجامع المسكونية.

(٢) عاشت الكنيسة في القرون الثلاثة الاولى من تاريخها حياة خفاء قسريّ، مرغمة على تحمّل العذاب والاضطهاد والقتل الذي لاحقها به الأباطرة الرومانيّون ملاحقة العدوّ الألدّ. وبالرغم من حصولها أحياناً على فترات عفو وتسامح، إلّا أنّها لم تَنَل شرعاً حقّ الاعتلان والظهور قبل العام ٣١٣، في **مرسوم ميلانو** الذي وقّعه حاكما الشرق والغرب ليكينيوس وقسطنطين. وفي عام ٣٢٤، تمكّن قسطنطين من التفرّد بالسلطة بعد قضائه على خصمه الوثنيّ ليكينيوس، فأصبح السيّد الأوحد والإمبراطور الرومانيّ الأوّل الذي يناصر الدين المسيحيّ، باعتناقه إيّاه ومجاهرته به.
D.T.C., T. I, Col. 1781, Paris, 1923.

(٣) إنّ مجمع الاسكندرية المحليّ الذي عقد سنة ٣٢٠ للبتّ في قضيّة أريوس قد افضى إلى حرم أريوس واسقفين آخرين معه (هما سيكونديوس أسقف بتوليمائيد وثيوناس أسقف مارماريك)، وخمسة كهنة (هم: أخيلا وإبثاليس وكاربونيس وأريوس غير المبتدع وسارماتيس)، وستّة شمامسة (هم أفزويوس ولوقيوس ويوليانوس وميناس وهيلاّديوس وغايوس).

وعندما عقد المجمع المسكونيّ في نيقية عام ٣٢٥، أي بعد مضيّ خمس سنوات فقط على عقد مجمع الإسكندريّة المحلّيّ، كان هناك سبعة عشر أسقفاً مواليّاً للمذهب الأريوسيّ بين الثلاث مئة والثمانية عشر اسقفاً المجتمعين. فرواج الدعوة بين الكنائس في أقاليم مصر وفلسطين وسورية وكيليكية حدا بالكنيسة إلى اتّخاذ تدبير سريع وعلى صعيد جامع، للحدّ من انتشار هذه البدعة.

(٤) يخالجنا شعور عامّ، لدى مطالعة سفر أعمال الرسل ورسائل القدّيس بولس بأنّ معظم المعتنقين للديانة المسيحيّة – ولا سيّما خلال القرن الأوّل للميلاد – ينتمون إلى وسط ثقافيّ وضيع، بدليل أنّهم كانوا يتقبّلون ببساطة قلب الكرازة الإنجيليّة والعجائب

وطقوس الديانة الجديدة ، بخلاف أولئك الذين وقفوا أنفسهم منذ زمن السيّد المسيح مناوئين للدعوة الإنجيليّة ، ناقضين تعاليمها ورسالتها ، وحاملين على فحوى العجائب. ومن هنا يتأكّد لنا واقع خلافة الآباء الدفاعيّين (وأشهرهم يوستينوس) للآباء الرسوليّين ، أولئك الذين سوف يلجأون إلى الأساليب الفلسفيّة المعتمدة آنذاك ، لاستخدامها كقالب ينقلون فيه العقيدة المسيحيّة إلى الفئة من أبناء الله التي تركن إلى منطق العقل والاستدلال الفلسفيّ.

(٥) فهذا التأمّل عينه حول عقائد الديانة المسيحيّة بخصوص الثالوث الأقدس هو ما عرّف إلى الآباء ، خلال القرنين الثاني والثالث ، بدعاً مثل **المونتانيّة** (إذ ادّعى صاحبها مونتانس أنّه هو الروح القدس الموعود به على لسان يسوع في يو ١٤ : ١٦) ؛ **وتبّاع مرقيون** الذين قالوا باختلاف إله النصارى عن إله اليهود ، ففصلوا هكذا في عمل تدبير الله الخلاصيّ بين يهوه والإله الآب الذي أرسل ابنه يسوع المسيح لخلاص جميع البشر ، وجعلوهما كائنين مختلفين الواحد عن الآخر ؛ **والتبنّويّة** التي تجعل من السيّد المسيح محض بشر رفعه إليه الله وخصّه بميّزات الألوهة ، عندما تبنّاه ابناً وحيداً له ؛ **والسابليّة** التي لا تميّز في الإله الواحد بين أقانيم ثلاثة ، بل يدعي أصحابها أنّ المسيح هو الآب نفسه والروح القدس نفسه : فالثالوث القدّوس هو الإله الواحد ، ولكنّه يظهر مرّة بهيئة الآب ، وتارة بشكل الابن وطوراً بصورة الروح القدس.

(٦) مستعمرة يونانيّة أُسِّست سنة ٦٣١ ق. م. ، ثمّ أُلحِقت في القرن الثالث قبل الميلاد بمصر وأصبحت ولاية رومانيّة ؛ وكان سمعان الذي حمل صليب المسيح من هذه المدينة (مت ٢٧ : ٣٢).

(٧) راجع بهذا الخصوص «**قاموس الكتاب المقدّس**» ، ص ٧٥٢ ، في «قيروان أو قيريني» ، ط ٢ ، إصدار مجمع الكنائس في الشرق الأدنى.

(٨) حصل هذا الانفصال في مدينة أنطاكية عندما عزل الامبراطور قونستانس ملاتيوس أسقف المدينة عن كرسيّه ، على أثر موعظة شدّد فيها هذا الأخير على صحّة معتقد الإيمان النيقاويّ ، فيما كانت الأجواء كلّها موالية لعصبة الفريق المناوىء لإيمان نيقية ، ولا سيّما وإنّ ملاتيوس هذا كان محسوباً على الفريق المخالف لمجمع نيقية. بعد قرار العزل هذا ، التفّ حول ملاتيوس عدد من المخلصين له وألّفوا جماعة كنسيّة خاصّة ، كان لا بدّ من أن ينضمّ إليها الفريق الأرثوذكسيّ المغلوب على أمره في المدينة ، بزعامة بولينوس. لكنّ تزمّت الفريق الأرثوذكسيّ حال دون الوحدة بين

الجماعتين المناصرتين لإيمان مجمع نيقية. ثمّ سيم بولينوس أسقفاً على أنطاكية في مواجهة ملاتيوس، فوقع بذلك الانفصال المرير.

(٩) J.-E. DARRAS, *Histoire Générale de l'Eglise*, T. I, 4e éd., p. 340, Paris, 1859.

(١٠) هناك رواية نقلها فيلوستورجيوس القائل باختلاف الجوهر تذكر أنّ أريوس نفسه هو الذي عمل على انتخاب ألكسندروس للسدّة البطريركيّة، إذ وجّه صوبه جميع الأصوات التي حصل عليها. راجع:

D.T.C., «Arianisme», T. I, Col. 1779-1780, Paris, 1923.

لكنّا لا نثق البتّة بصحّة هذا الادّعاء. فمعرفتنا بطبيعة أريوس النفسيّة، من جهة، وبتحيّز الكاتب الواضح لمعلّمه، من جهة ثانية، إذ يجعل بروايته هذه ألكسندروس ناكراً للجميل تجاه أريوس، يحملاننا على الاعتقاد بأنّ هذا الزعم عار من الصحّة.

(١١) «... كان هذا الحبر أحد أولئك الذين يذكر عنهم الإنجيل أنّهم لا يدخلون إلى الحظيرة من الباب الحقيقيّ، بل إذ هم مشابهون للسارق يغدرون بمصالح القطيع. وكان يُعتبَر جاحداً للدين في أثناء الاضطهاد. ثمّ أصبح بعدئذ – والله أعلم كيف! – أسقفاً على بيريت الفينيقيّة. ولمّا كان متملّقاً ماهراً، فقد نجح في استمالة ألطاف الأميرة قسطنطيا إليه، شقيقة قسطنطين وزوجة ليكينيوس. فعندما شغرت أبرشيّة نيقوميذية الميتروبوليتيّة غادر افسيبيوس الذي كان يقيس الدرجة الأسقفيّة بعظمة المدن، دون إذن قانونيّ، مدينة بيريت الصغيرة إلى مدينة نيقوميذية الإمبراطوريّة. وعندما شنّ ليكينيوس الذي استقرّ في هذه المدينة حرباً ضدّ المسيحيّين وقسطنطين على السواء، كان أفسيبيوس كاتم أسرار ليكينيوس وصديقاً له. ولكن، عندما انتصر قسطنطين، كان أوّل الذين استأثروا بحظوته. لقد كان واحداً من هذه الطباع الخانعة التي نجدها مكبّلة إلى جميع عربات النصر، والتي يعثر عليها جميع المنتصرين بين أمتعتهم...». J.-E. DARRAS, *op. cit.*, p.343.

(١٢) في ختام جلسات المجمع النيقاويّ وقّع جميع الآباء على اعتراف بالإيمان القويم أوحى تعابيره رسول البابا أوسيوس أسقف قرطبة، وأنشأه أسقف قيصريّة الكبّاذوك هيرموجينيس. إنّ هذه الوثيقة هي التي ستؤلّف التمسّك بإيمان الآباء والرسل وتعليم الكنيسة الصحيح، وستدخل في صلوات الفرض الكنسيّ والذبيحة الإلهيّة باسم «**قانون الايمان**»، وفيها عرض لاهوتيّ مسهب عن طبيعة «الابن» يسوع المسيح.

لكنّ أفسيبيوس أسقف نيقوميذية وهو الذي أذعن لمشيئة آباء المجمع رغماً عنه – لأنّ الملك قسطنطين تهدّد بالنفي جميع الأساقفة الذين سيبقون على موقفهم المخالف لموقف غالبيّة الآباء في المجمع – سوف يكتب وهو يوقّع على الوثيقة «ὁμοιούσιος» ، أي «**مشابه في الجوهر**» ، بدل «ὁμοούσιος » أي «**مساو في الجوهر**» ، ممهّداً بعمله هذا السبيل لخلافات حادّة وتطوّرات سريعة سوف تجرّ الويلات والانقسامات والاضطهادات على جسم الكنيسة ، ولكن – هذه المرّة – من داخلها.

(١٣) في اليونانية «ὁμοούσιος» ، «**مساوٍ في الجوهر**». ولم تكن هذه اللفظة ابتداعاً جديداً على لسان البطريرك ألكسندروس ، إذ هي موجودة قبله ، ومتداولة الاستعمال في التعابير اللاهوتيّة ومألوفة لدى الكتّاب الكنسيّين. وقد استعملها ديونيسيوس الإسكندريّ وديونيسيوس الرومانيّ في كتاباتهما حول جوهر الإله.

(١٤) يبدو أنّ فكرة أريوس اللاهوتيّة هي الفصل بين عالمي المادّة والروح. فالله أسمى بكثير من أن ينتابه محمول العالم الماديّ ؛ والجوهر الإلهيّ لا يُعقَل أن يتّخذ أشكالاً بشريّة ضعيفة ويبقى فيها سالماً. ومن ثمّ ، فجوهر طبيعة السيّد المسيح مختلف عن جوهر طبيعة الله الآب ، الذي لا يجدر أن تُطلَق عليه تسمية الآب ، لأنّ هناك زمناً لم يكن فيه الابن. فالإله الآب لم يُعرَف إلّا متى أوجد الشخص يسوع المسيح ، الذي أصبح ابنه بالتبنّي لا بالطبيعة الإلهيّة.

(١٥) من الملاحظ في تاريخ كنيسة القرون الأولى أنّ المنافسة كانت قويّة في العلاقات وتبنّي المواقف بين مدرستي أنطاكية والإسكندريّة اللاهوتيتين. فمنذ نشأتهما في مطلع القرن الثالث ، خطت كلّ منهما في منهج مختلف عن الأخرى ومنصبّ على معالجة زاوية مناقضة تماماً لوجهة الطرف الآخر. فكان علماء اللاهوت في أنطاكية يؤثرون ممارسةَ العمل على التأمّل واكتسابَ الفضيلة على التصوّف ، فيما كان الآباء الروحيّون في الإسكندريّة يميلون أكثر إلى الماورائيّات ، ويُغرقون في التأمّل والحياة الزهديّة الصامتة. وكان المفكّرون في المدرسة الأنطاكيّة يعلّمون فلسفة أرسطو ويمزجونها مع تعاليم أفلاطون ، فيمَا اتّبع مفكّرو الإسكندريّة المذهب الأفلاطونيّ الصرف واغتنوا منه في التحليق والتأمّل بالمحيط الإلهيّ. وكان لا بدّ بالتالي من تصاعد هذا التنافس بينهما مع نموّ الحياة الفكريّة ، وبلوغه مبلغ المشادّة والمنازعة ، مع أنّ الكمال هو في التكامل لا في التناحر. وهكذا ، فقد انعكس التيّار الروحيّ لكلّ مدرسة على الأشخاص الذين تأثّروا بأفكاره ومالوا بميوله الفلسفيّة ، ودافعوا عن تثقيفهم الدينيّ حسب الأصول التي نهلوا منها في ظلّه. فأريوس مثلاً وإن كان إسكندريّ الانتماء

والخدمة الكهنوتيّة ، إلّا أنّه أنطاكيّ الثقافة الروحيّة لتأثره العميق بتعاليم لوقيانوس صاحب مدرسة أنطاكية اللاهوتيّة. ولمّا عارضه ألكسندروس البطريرك الإسكندريّ وجد أريوس أزراً له في موقفه اللاهوتيّ لدى أساقفة المدن السوريّة ، الذين درسوا كلّهم على يدي تبّاع التيّار الأنطاكيّ. وهذا الوضع لن يكون وحيداً ، إذ إنّ نسطوريوس بطريرك القسطنطينيّة هو أيضاً أنطاكيّ الثقافة الروحيّة ؛ ولمّا أعلن عقيدته الهرطوقيّة بوالدة الإله برز له خصماً القدّيس كيرلّس رئيس أساقفة الإسكندريّة . ويجدر التنويه هنا بأنّ مواقف الآباء المتضاربة هذه لم يكن الدافع عليها مجرّد الانتماء اللاهوتيّ إلى هذه المدرسة أو تلك ، بل إنّ تأثير هذا الانتماء لم يخلُ من دور يلعبه في تبنّي المواقف والمواقف المعارضة في المجامع وتحديدات العقيدة والتفسيرات الكتابيّة .

(١٦) ولا سيّما أفسيبيوس أسقف نيقوميذية وثيوغنيس أسقف نيقية . فقد سعيا بعد توقيعها الجبريّ على قانون الإيمان النيقاويّ مسعى مواربا وغير شريف ، إذ رشيا حارس المحفوظات الملكيّة بمال كي يسلّم إليهما الأعمال المجمعيّة . وقاما بشطب اسميهما من اللائحة الرسميّة التي تحمل توقيعات الآباء على مقرّرات المجمع . فنُفيا كأريوس إلى بلاد الغال ومكثا فيها حتى عام ٣٢٨ ، عندما نالا العفو من الإمبراطور ، فعادا إلى كرسيّيهما واسترجعا حقوقهما الأسقفيّة السالفة ، وراحا يدسّان المكائد ويحيكان الدسائس للانتقام من أشهر رجال المجمع الأرثوذكسيّين والإيقاع بهم ، حتى توصّلا إلى عزل ألمع الأساقفة عن كراسيّهم : بولس رئيس أساقفة القسطنطينيّة ، أثناسيوس رئيس أساقفة الإسكندريّة ، مارشيلوس أسقف أنقره ، أفستاثيوس رئيس أساقفة أنطاكية .

(١٧) أوّل المجامع الأريوسيّة ذلك الذي عقد في مدينة صور عام ٣٣٥ . ثمّ أعقبه مجمع آخر في القسطنطينية عام ٣٣٦ ، وتتالت المجامع الأريوسيّة بكثرة وفي مدن متعدّدة : أنطاكية ، أنقره ، قيصريّة ، سيرميوم ، سلوقيا إلخ .

(١٨) في اليونانيّة «ὁμοιούσιος» . وقد ناصر معظم الأساقفة الشرقيّين هذا الموقف واعتنقوه ، فكانوا يؤلّفون بين معارضي قرارات نيقية الفئة العظمى .

(١٩) في اليونانيّة «ὁμοῖος» اشتهر من روّاد هذه الفئة أكاكيوس رئيس أساقفة قيصريّة .

(٢٠) في اليونانيّة «ἀνόμοιος» .

(٢١) التسميات التي حملها أصحاب بدعة القائلين باختلاف الجوهر هي بالفرنسيّة :

«Anoméens», «Eunoméens», «Aétiens», «Exoucontiens».

وهذه التسمية الأخيرة اشتقاق يونانيّ الأصل «ἐχ οὐκόντων»، ومعناه «من العدم»، ويخصّ السيّد المسيح. و«Hétérousiens»، في اليونانيّة «ἑτερούσιος»، أي «مختلف الجوهر».

(٢٢) أيّام خدمة يوحنّا الذهبيّ الفمّ الكهنوتيّة، كانت الديانات الموجودة في أنطاكية المسيحيّة واليهوديّة والوثنيّة، والفرق الأرثوذكسيّة والأريوسيّة وتبّاع ملاتيوس والصابئة، والشيع الوثنية المتعدّدة والمتنوّعة. وكانت اليهوديّة نشطة في هذه الأوساط تحاول استعادة مكانتها مستفيدة من مختلف الظروف والحالة التي ترزح تحتها المدينة.

(٢٣) لذلك نجد أصحاب بدعة القائلين باختلاف الجوهر يلتحمون في الفترة الأولى من تاريخهم بالأريوسيّة، مع أنّ الدعوتين تتباينان في ما بينهما.

(٢٤) سوف يشتدّ التحالف بين البدعتين في بداية الطريق وزمن اشتداد الضغوطات الإمبراطوريّة، لكنّهما ستختلفان وتحرمان الواحدة الأخرى في وقت لاحق، كما حدث عام ٣٥٨، عندما أُدينت بدعة القول باختلاف الجوهر، وحُرِم نتيجة لذلك إيتيوس وتلميذه أفنوميوس.

(٢٥) St Grégoire de Nysse, *Contra Eunomius,* l. I, Col. 204.

(٢٦) راجع أعلاه الملاحظة رقم ٣.

(٢٧) فقد تسبّب لإيتيوس في هذا النفي فريق المذهب القائل «بمشابه للآب في الجوهر» الذي كان قد تعرض لهزيمة نكراء في مجمع أنطاكية المنعقد عام ٣٥٨. لذلك، فقد سعى أكاكيوس أسقف قيصريّة الى عقد مجمع ثار في مدينة سيرميوم، العام نفسه، وتمكّن من الحصول على نفي إيتيوس ونقل أفذوكيوس عن كرسيّه.

(٢٨) جدير هنا بالذكر التنويه بانقسامات هذه البدعة إلى فئات عديدة ومتناحرة، تنتسب كلّ منها إلى زعيم وتكنّى باسمه. فكان هناك فريق من الأفنوميوسيّين موالياً لثيوفرونيوس الكبّاذوكيّ الذي انفصل عام ٣٧٩، لتعليمه أنّ المعرفة الإلهيّة تتبدّل وتتطوّر مع الزمن، وأنّ مضمون هذه المعرفة غير ثابت بالتالي. وقام فريق آخر منهم بالانتساب إلى إفتيخيوس القسطنطينيّ لقوله إنّ الابن يعرف موعد الساعة الأخيرة، إذ أعطاه الآب كلّ شيء، فتبعه أيضاً عدد من الأفنوميوسيّين وألّفوا بدعة مستقلّة بذاتها. ثمّ حدث انشقاق آخر في مطلع القرن الخامس مع لوقيانوس لسوء مسلكه داخل الجماعة.

(٢٩) *D.T.C.*, T. I, 2e part., art. «Anoméens», col. 1324, Paris, 1923.

(٣٠) تجد قانون الإيمان هذا في S. ATHANASE, *De Synodis*, 15
وأيضاً في .P.G., T. XXII, col. 950-951

(٣١) إنّ عدم ثبات مدلول التعابير الفلسفيّة التي استُعمِلت للدلالة على معاني العقيدة كان له باع طويل في اللغط الذي نشأ بين لاهوتيي القرن الرابع. فكلمة **الجوهر** تعني في اللغة العربيّة **الموجود القائم بنفسه**، الذي يحفظ مبدأه سالماً مهما أدّى من وظائف: وهذه الأخيرة يمكن تسميتها بالأعراض. أمّا باليونانيّة فثمّة تعبيران لهما مدلول «الجوهر» مع قرائن معنويّة إضافيّة: οὐσία وتعني «الجوهر» كما هو مفسّر أعلاه؛ و ὑπόστασις وتعني «الأساس» و «المبدأ». أمّا اللفظة الأولى فيقابلها بالفرنسيّة (واللفظة الفرنسيّة اشتقاق لاتينيّ) Essence، وتعني أيضاً «الجوهر» والكيان؛ فيما يقابل لفظة ὑπόστασις كلمة Substance التي تتطابق معها في التحليل اللغويّ تطابقاً تامّاً:

ὑπό = sub = sous = تحت

στάσις = stance = stabilité = استقرار

وثمّة كلمة ثالثة تدلّ على الفحوى المعنويّ نفسه هي كلمة Nature الفرنسيّة، ويقابلها باللاتينيّة تعبير Natura، وباليونانيّة φύσις، وبالعربيّة **الطبيعة**. فتعدّد هذه التعابير للإشارة إلى مدلول واحد واستعمالها في موضوع دقيق جدّاً يهدف إلى تفسير عقيدة الثالوث الأقدس، وتباين مدلول هذه الألفاظ لدى اللاهوتيين بحسب المدارس الفلسفيّة المتعدّدة القائمة آنذاك، والتي تخرّج منها آباء تلك الحقبة، كلّ هذه الأمور قد تضامنت في ما بينها لتفضي بالباحثين والمناقشات إلى تضارب الآراء واختلاف المواقف وتشبّث البعض بنظرياتهم، ممّا أدّى إلى وقوع ما وقع. أمّا لفظة **الشخص** (أو الأقنوم كما هو متعارف عليه حسب الاستعمال المتواتر) فيقابلها باللاتينيّة Persona، وباليونانيّة πρόσωπον. لكنّ الكلمة اليونانيّة كانت تثير الشبهات وتحفّ بها معان لاهوتيّة منحرفة. فبالإضافة إلى مدلول كلمة «الشخص» الذي تحمله هذه اللفظة، تنطوي الكلمة أيضاً على معانٍ أخرى: «**وجه**»، «**قناع**»، «**هيئة**»، وكان استعمال هذا التعبير في صدد الكلام عن الألوهة خطيراً نظراً إلى الهرطقات والتفسيرات المضلّة التي عرفها القرن الثالث، والتي يقود استعمال هذه الكلمة إلى العودة إليها. لأنّ الجزم بأنّ الإله الواحد ذو ثلاثة «**أوجه**»، أو أنّه يظهر للأنام من خلال ثلاث «**هيئات**» هو النفي التامّ لتفرّد كلّ شخص من أشخاص الثالوث

الأقدس وتميّزه عن الآخر. لذلك تحاشى الآباء اللاهوتيّون عن إدراج هذه الكلمة في كتاباتهم، وآثروا عليها كلمة ὑπόστασις للإشارة إلى كلّ أقنوم من الأقانيم الثلاثة، مع ما يرافق هذا الاختيار من غموض فلسفيّ. ولهذا السبب نجد أريوس مثلاً يكتب إلى ألكسندروس مستغرباً: «**هناك إذن ثلاثة أقانيم** «ὑπόστασις»»، وفي نفسه أنّ كلمة «ὑπόστασις» مرادفة لكلمة «οὐσία». ثمّ يكفّر بعد ذلك هذا الاستعمال لأنّه يقول إنّ «الجوهر» واحد هو الله الآب، الغير المولود وحده ἀγέννητος، والذي وحده لا بدء له ἄναρχος، ولا يعقل أن يكون هناك ثلاثة «مبادىء» أو ثلاثة «**أساسات**» متساوية في ما بينها تكوّن معاً الألوهة، لأنّنا سنؤول آنذاك إلى عبادة ثلاثة آلهة (Trithéisme) لا إله واحد «Monothéisme»

(٣٢) بهذا الادّعاء انفصل أفنوميوس عن أريوس الذي يشدّد على امتناع الله عن إدراك البشر.

(٣٣) *De Synodis* 16; P.G., t XXVI, col. 708.

من الملاحظ في تحديد أريوس التفصيل التحليليّ الذي يصف الآب **بخصائصه الأقنوميّة**: فعدم الولادة هو محمول ينسب إلى الآب وحده ويختصّ به (فالأب ἀγέννητος فيما الابن γέννητος)؛ ومن الطبيعيّ أنّ يستجرّ هذا المحمول آخر هو كون الآب المصدر الأول، هذا المحمول المنحصر أيضاً به وحده (لذلك فهو أيضاً ἄναρχος). ولكنّ حصر أريوس الألوهة بهذين المحمولين خطأ منطقيّ، لأنّ فيه انتقالاً عشوائيّاً وغير متّزن من **الخصائص الأقنوميّة** (غير مولود، لا بدء له) إلى **الجوهر الثابت والواحد** (الألوهة). فقد جعل أريوس في نظريّته المحمولات ذاتاً، والخصائص جوهراً، فاختلط عليه الأمر وشطّ به التحديد وزاغ عن الحقيقة.

أمّا أفنوميوس فقد أخذ عن أريوس تعليمه عينه وأدخل عليه قبساً جديداً، فأحدث تطوّراً نوعيّاً اختلف عن الأصل اختلافاً. لقد دمج أفنوميوس المفهومين **غير مولود** ἀγέννητος **ولا بدء له** ἄναρχος في مفهوم واحد **اللاتناسليّة** ἀγέννητος، لدقّة ذات القربى بينهما؛ وأطلق على المفهوم الجديد الذي هو محمول وصفة ليس إلّا ملكة الجوهر، إذ سمّاه الألوهة، مرتكباً خطأ أريوس نفسه لبناء عقيدته الخاصّة على عقيدة هذا الأخير. وفي الحقيقة أنّ من هو **غير مولود** هو أيضاً، استطراداً، **لا بدء له**، إذ ليس ثمّة من العناصر الموجودة أو العوامل المكوّنة أيّ عنصر أو عامل قبله. هذه هي النتيجة التي خلص إليها تفكير أفنوميوس، وقد انفصل بها عن التعليم

الأريوسيّ لتباين المعتقدين : فبينما يذهب أفنوميوس إلى حدّ التأكيد أنّ الألوهة يمكن إدراكها بالعقل ، يصرّ أريوس على استحالة فهم عملها وجوهرها.

(٣٤) إنّ لفظة ἀγέννητος «غير مولود» قد جعل منها أفنوميوس اسماً لله ، كما جعل اللفظة المشتقّة منها ἀγεννησία جوهره (أي ذاته) . لكنّ هذا الاسم وهذا التحديد خاليان من أي مستند توراتيّ أو إنجيليّ ؛ أضف أنّهما مجرّدان من كلّ مدلول عمليّ وإيجابيّ. فشتّان الفرق بينهما وبين التسميات المترادفة التي نجدها في الكتب المقدّسة ، مثل : **أنا هو** ، **أنا الطريق والحق والحياة** ، **الله محبّة** ، **أنا القيامة** ، **أنا الخبز النازل**... ، **أنا ماء الحياة**... إلخ . علاوة على هذا ، فقد ذكر عديد من الكتّاب اللاهوتيّين في ما يخصّ الإيديولوجيّة اللاهوتيّة الأفنوميوسيّة أنّ أصحاب هذه البدعة «**يتصوّرون الله تصوّراً مجرّداً محضاً** ، **لا يتطابق وأيّ واقع ملموس للحياة الإلهيّة**» . فقد اختلط عليهم الأمر بين **الكائن الإلهيّ** غير المحدود في كماله ، **والكائن المجرّد** الذي يسهل جدّاً تقصّيه بالفكر حتّى إنّه يخلو من كلّ تحديد.

(٣٥) يفسّر أفنوميوس بعض الآيات الإنجيليّة التي يعمل فيها الربّ يسوع المسيح مدفوعاً بالروح تفسيراً يذهب هذا المذهب ، أنّ الكلمة فيه يحرّك إرادته وسلوكه.

العِظَـةُ الأولى (١)

[عظة أولى لأبينا في القديسين يوحنا لذهبيّ الفم، رئيس أساقفة القسطنطينيّة، لدى غياب الأسقف. في أن الله لا يمكن إدراكه وضدّ القائلين باختلاف الجوهر].

استهلال : إطراء على الأسقف الغائب

ماذا أرى ؟ الراعي [٢] ليس حاضراً والخراف منتظمة خير انتظام . إنّما هذا هو نجاح الراعي في أن تبدي خرافه أعظم غيرة ، لا في أثناء حضوره فقط وإنّما مدّة غيابه أيضاً . فالحيوانات المعدومة العقل ينبغي لها أن تبقى داخل الحظيرة عندما يكون غائباً عنها من يحدوها إلى المرعى ؛ وإلّا ألقت بنفسها في مضلّة طويلة إنْ هي أقدمت على المجازفة خارج مكلئها ، وبدون راعيها . أمّا هنا فلا شيء من نحو ذلك : لقد بلغتم مراعيكم بانتظام بديع ، حتّى في غياب راعيكم .

إنّه لأحرى بنا أن نقول إنّ راعيكم حاضر لا حضوراً ماديّاً وإنّما روحيّاً ، لا مثولاً جسديّاً وإنّما بانتظام القطيع الحسن . وما يضاعف من تكريمي وامتداحي له أنّه عرف أن يبثّ فيكم غيرة فائقة ؛ إذ إنّ قائداً ما إنّما يثير خصوصاً دهشتنا عندما تحافظ ألويته على نظام بديع لدى غيابه عنها . وهذا عينه ما كان يتمنّاه بولس لتلاميذه عندما قال : « وهكذا يا أحبّائي ، فكما أنّكم قد أطعتموني دوماً لا في أثناء حضوري بينكم فقط ، بل أكثر أيضاً في أثناء غيابي ... » [٣] . لماذا هذه

الكلمات : «بل أكثر أيضاً في أثناء غيابي ...» ؟ ذلك لأنّ إبعاد الذئب عن النعاج سهل إذا ما انقضّ على القطيع فيما الراعي حاضر ، أمّا إذا كان غائباً عنها فإنّها ستواجه خطراً أشدّ ، إذ ما من أحد ثمّة كي يذود عنها. وعلاوة على هذا ، فهو يشاركها مفخرة حماسها عندما يكون حاضراً معها ، بينما يدع قدرها يجلو للعيان في حال تغيّبه.

إنّ هذه الكلمات يتوجّه بها إليكم معلّمكم مع أنه غائب عنكم. وأينمَا يكن الآن فهو يتخيّل اجتماعكم. وهو لا يرى من معه ، في حضرته ، مثلما يراكم أنتم ، في هذا الوقت ، بالرغم من البعد.

سموّ المحبّة

إنّني أعرف محبّته المتّقدة والممتلئة ناراً وحرارة والتي لا تُقهَر ، تلك التي يحافظ عليها متأصّلة في أعمق أعماق نفسه ، والتي يصونها بغيرة فائقة. وفي الواقع ، إنّه لمدرك تمام الإدراك أنّها هي الفضيلة الأولى ، أصل الفضائل كلّها ومصدرها وأمّها ، وأنّ أيّاً من الفضائل الأخرى لا تنفع ترّهة إذا ما نقصت هي ؛ ذلك لأنّها علامة تلاميذ الربّ ، وصفة خدّام الله المميّزة ، وشارة الرسل الفارقة. والحقّ أنّه مكتوب : «بهذا يعرف الجميع أنّكم تلاميذي»(٤) . بحقّك ، قل لي ، بماذا ؟ أبسلطان إحياء الموتى ، أم بسلطان تطهير البرص ، أم بسلطان طرد الشياطين؟ كلاّ ، فقد قال المسيح معرضاً عن ذلك كلّه : «بهذا يعرف الجميع أنّكم تلاميذي ، إذا ما أحببتم بعضكم بعضاً».

لعمري ، إنّ هذه القوى الأخرى هي مواهب النعمة العُلويّة وحدها ، بينما المحبّة هي أيضاً نتيجة الاجتهاد البشريّ. والحال أنّ نبل

النفس يظهر عادة، بطريقة أقلّ تعبيرًا بالمواهب المعطاة لنا من فوق، منه بالنتائج الناجمة عن جهودنا الشخصيّة. لهذا السبب، فإنّما يُعرَف تلاميذ المسيح - كما يقول هو - بالمحبّة لا بالمعجزات، لأنّ المحبّة متى وُجِدت لا ينقص ممتلكها أدنى أجزاء الحكمة، بل إنّه يحوز الفضيلة بمجملها كاملة وبلا عيب؛ أمّا مَن فقدها فإنّه يخلو من الصالحات جميعها. ولهذا السبب أيضاً يتغنّى بها بولس فيعظّمها في كتاباته؛ إلّا أنّ جميع التقاريظ التي يمدحها بها تبقى دون ما تستحقّ هي.

ما عساه يوجِد حقّاً من معادل للمحبّة التي تشتمل على جميع النبوّات والناموس كلّه، والتي من دونها لا العلم ولا معرفة الأسرار ولا الاستشهاد نفسه ولا أيّ أمر آخر يمكنه أن يضمن لنا خلاصنا؟ لأنّه يقول: ماذا «ينفعني لو أسلمت جسدي ليُحرَق إنْ لم تكن فيّ المحبّة، فهذا لا يفيدني شيئاً» (٥). كما يقول في موضع آخر، ساعياً إلى إظهار أنّها أعظم وأسمى من الفضائل الأخرى جميعها: «وأمّا النبوّات فستزول، وموهبة الألسن ستضمحلّ، والعلم سيتلاشى...؛ وحدها تثبت هذه الفضائل الثلاث: الإيمان والرجاء والمحبّة، وأعظمهنّ المحبّة» (٦).

«العلم سيتلاشى»

تقود هذه الكلمات المتعلّقة بالمحبّة إلى معضلة ذات شأن. فأن تزول موهبة النبوّة وتضمحلّ موهبة الألسن فهذا أمر لا يثير أية مشكلة، لأنّ هذه النعم إنّما وضعت بتصرّفنا لفترة ما، ويمكنها أن تحتبس دون إلحاق أيّ ضرر بالكرازة. فاليوم لا نقع على أثر لموهبة النبوّة والألسن، ومع ذلك لم يردع الكلمة المقدّسة رادع. ولكن، أن يتلاشى العلم فتلك هي

المعضلة. لأنّ بولس بعد أن كان قد قال: «أمّا النبوّات فستزول، وموهبة الألسن ستضمحلّ»، أضاف: «وأمّا العلم فسيتلاشى». وإذا ما تلاشى العلم فإنّ حالتنا ستسوء بدل أن تتحسّن، لأنّا بدونه سوف نُضيع كلّ ما هو خاصّة الإنسان.

وفي الحقيقة، إنّه لمكتوب: «إتّقِ الله واحفظ وصاياه، لأنّ هذا هو الإنسان كلّه»[٧]. فإذا كانت خاصّة الإنسان أن يخاف الله، وإذا ما كانت مخافة الله هذه تنجم عن العلم، فإنْ حدث أن تلاشى العلم فسوف نغدو آنذاك، عندما لن يكون للعلم من وجود، غائصين في ضياع تامّ. إنّ كلّ ما هو خاصّ بنا سيتلاشى، ونحن سنؤول إلى حالة ليست من بعد أسمى، بل أحطّ بكثير من حالة الحيوانات أنفسها. لأنّه في هذا يكمن تسامينا عليها، إذ تفوقنا هي جدّاً في ما يختصّ بجميع باقي الميّزات التي تتعلّق بالجسم. فماذا يريد بولس أن يقول إذن، وعمّ يتكلّم عندما يؤكّد أنّ «العلم سيتلاشى»؟

إنّه لا يقول هذا عن العلم الكليّ بل عن العلم الجزئيّ، مسمّياً تلاشياً الانتقال إلى حالة فضلى إذ يتلاشى العلم الجزئيّ لكي لا يكون بعد جزئيّاً، بل ليغدو كليّاً. وهكذا، يتلاشى عهد الطفولة لا بدمار الكيان، وإنّما على نقيض ذلك بفعل نموّ هذا العمر، وبالانتقال إلى حالة الرجل الكامل. ويمكن قول الشيء نفسه عن العلم، لأنّ هذا العلم الضئيل – كما يقول – لن يكون بعد ضئيلاً عندما يكون قد كبر. ها هو ذا ما تعنيه كلمة «سيتلاشى»، كما أنّه يشرحها لنا شرحاً أوضح في ما بعد. وفي الواقع، لكي يُفهَم أنّه ينبغي لهذه الكلمة أن تؤخذ لا في معنى الانعدام، بل في معنى الازدياد والتقدّم، فهو قد أضاف بعد أن قال «سيتلاشى»: «لأننا نعلم علماً ناقصاً، ونتنبّأ تنبّؤاً ناقصاً.

ولكن متى جاء الكامل، تلاشى ما هو ناقص»، بحيث لا يكون هذا ناقصاً من بعد بل كامل. وبالتالي، فإنّ نقص العلم سيتلاشى لكي لا يكون بعد ناقصاً، بل على العكس من ذلك كامل. هذا «التلاشي» هو إذن نموّ وتقدّم.

حقارة العلم البشريّ

أنعم النظر، إنّي راجيك، في حكمة بولس. فهو لم يقل: «إنّنا لا نعلم سوى جزء من الأمور»، وإنّما: «إنّنا لا نعلم الأمور إلّا جزئيّاً»، مريداً أن يبرهن بذلك أنّنا لا ندرك من الواقع إلّا جزءاً من جزء. قد تبغون معرفة الأهميّة النسبيّة للجزء الذي ندركه والجزء الذي يفوتنا، هل ندرك الجزء الأكبر أو الأصغر؟ فلكي تعرف إذن أنّك لا تدرك إلّا الأصغر، وليس فقط الأصغر ولكن الجزء من المئة بل الجزء الواحد من العشرة آلاف جزءًا من الحقيقة، إسمع ما يلي. أو بالأحرى، قبل أن أردّد على مسامعكم كلمات الرسول، سوف أستعين بتشبيه يجعلك تشعر -بقدر ما يسمح التشبيه- بالأهميّة النسبيّة للجزء الذي يفوتنا والجزء الذي ندركه الآن؛ وبالتالي، ما هو البَون الفاصل بين العلم الذي سنُعطاه لاحقاً وذاك الذي نحوزه الآن؟ إنّه قصيّ قصوّ المسافة التي تفصل بين رجل كامل وولد رضيع. أجل، هكذا هو تسامي العلم القادم على علم اليوم. فأن يكون الأمر كذلك - وسموّ الواحد على الآخر كما تقدّم - هذا أيضاً ما سيقوله لنا بولس نفسه. لأنّه بعد أن كتب: «إنّنا لا نعلم إلّا علماً ناقصاً»، مريداً أن يبيّن ما يشتمل عليه هذا الجزء، وكم هو زهيد ما نعلمه منذ الآن، أضاف: «لمّا كنت طفلاً، كنت أنطق كطفل وأعقل كطفل وأفكّر كطفل. أمّا الآن إذ

صرت رجلاً، فقد أبطلت ما هو للطفل»[٨] . إنّه يشبّه إذن العلم الحاضر بحالة طفل صغير، والعلم القادم بحالة رجل بالغ . فهو لم يـقُل : «لمّا كنت صبيّاً» ، لأنّ المرء لا يزال يُعتَبر كذلك وهو في الثانية عشرة من عمره، ولكن : «لمّاكنت طفلاً» ، وهذا يعني وليداً رضيعاً ما برح يتغذّى باللبن. وللتثبّت من أنّ الكتاب المقدّس يفهم عبارة «طفل» بهذا المعنى ، اسمع المزمور القائل : «أيّها الربّ إلهنا ، ما أعظم اسمك في كلّ الأرض ، وقد جعلتَ جلالك فوق السماوات. بأفواه الأطفال والرضّع هيّأت لك تسبيحاً»[٩] . فأنت ترى أنّه يدعو الرضيع «طفلاً» في كلّ مكان.

ولم يكتفِ الرسول بهذا التشبيه وحده، مستدركاً بقوّة الروح سفاهة الناس في المستقبل، فاستخدم تشبيهاً ثانياً فثالثاً كي يؤكّد لنا الأمر. وهكذا موسى عندما أُرسِل إلى اليهود، تلقّى المقدرة على إظهار ثلاث آيات لهم ، حتّى إذا لم يصدّقوا الآية الأولى يصغون لصوت الآية الأخرى. وإذا ازدروا هذه أيضاً فإنّ احترام الآية الثالثة يجعلهم على الأقلّ يقبلون النبيّ[١٠] . كذلك بولس، فهو يستخدم أيضاً ثلاثة تشابيه : الأول تشبيه الطفل، عندما يقول : «لمّا كنت طفلاً كنت أعقل كطفل» ؛ والثاني تشبيه المرآة ؛ والثالث تشبيه اللغز. لأنه بعد أن قال : «لمّا كنت طفلاً...» أضاف : «إنّنا ننظر الآن في مرآة، في لغز». ها هو، في الواقع ، التشبيه الثاني الذي يبرهن على عجزنا الحاضر ونقص علمنا. ويعتمد التشبيه الثالث على كلمتَي «في لغز». وفي الواقع ، كثيرة هي الأمور التي يراها الطفل اليافع ويسمعها وينطق بها ، لكنّه لا يرى ولا يسمع ولا ينطق بشيء جليّ. وهو يعقل أيضاً ، ولكن دون تمييز. هكذا أنا ، فإنّي أعرف كثيراً من الأشياء، ولكنّي لا أعرف

غايتها الخفيّة. وبالتالي، أن يكون الله في كلّ مكان وأن يكون حاضراً فيه بكليّته أمر معروف لديّ، ولكن كيف؟ هذا ما أجهله، لأنّ العقل غير قادر أن يفهم كيف أنّ جوهرًا يمكن أن يوجد، دون أن يتلقّى الوجود لا من ذاته ولا من مبدإ آخر. إنّني أعرف أنّه ولد ابناً، ولكن كيف؟ هذا ما أجهله. وأعرف أنّ الروح يخرج منه، ولكن كيف يخرج؟ فهذا ما لا أدركه. [إنّني أتناول أطعمة، ولكن كيف تتباين في ما بينها لتصبح خلطاً ودماً ولمفاء وصفراء؟ فهذا ما أجهله. وهكذا، فإنّ ما نراه ونأكله كلّ يوم نجهله، ثمّ نتطفّل على معرفة جوهر الله!]

حماقة من يدّعي أنه يمتلك العلم كلّه

أين هم إذن هؤلاء الذين يدّعون امتلاك العلم بمجمله، هم الذين سقطوا في قعر هاوية الجهل؟ فإنّ من يؤكّدون أنّهم يمتلكونه الآن بكلّيته يستثنون أنفسهم بأنفسهم من العلم الكامل في المستقبل. وأنا الذي أُقِرّ بأنّني لا أعلم إلّا علماً ناقصاً، فحتّى إذا سلّمت بأنّ هذا العلم سيتلاشى، أظلّ في مساري نحو حالة فضلى وأكثر كمالاً، إذ إنّ هذا العلم الناقص لن يتلاشى إلّا لكي يصبح أكثر كمالاً. لكنّ الذي يدّعي أنّه يحوز العلم التامّ والكليّ والكامل، ثمّ يعترف بعد هذا بأنه سيتلاشى في المستقبل، يقيم هو نفسه الدليل على أنه سيكون محروماً من كلّ علم، ما دام العلم الذي كان يمتلكه سيتلاشى، ولن يكون ثمّة علم آخر أكثر كمالاً لكي يقتنيه، إذ يمثّل ذلك العلم، حسب رأيه، العلم الكامل. ألا ترون أنّ المرء في سعيه الحثيث إلى البرهان على أنّه يملك كلّ شيء في هذه الفانية لا يملك شيئاً من هذا العالم، ويجرّد نفسه في آنٍ معاً من كلّ شيء في الآخرة؟ هذه هي جسامة الشرّ الكامن في عدم البقاء

ضمن الحدود التي خصّنا بها الله منذ الابتداء. وهكذا آدم، فقد أقصى نفسه عن المنزلة التي كانت لديه، باشتهائه منزلة أرفع. وهذا أيضاً ما يحصل للذين يحبّون المال: فكثيرون بينهم يخسرون حتّى ما كانوا يحوزونه، لرغبتهم في مقتنيات أعظم. وبالطريقة ذاتها، يجرّد أولئك [الأنوميّون] أنفسهم عمّا هو جزئيّ بتصوّرهم أنّ لديهم كلّ شيء في هذه الفانية.

لا يمكن البشر إدراك الله

أحرّضكم إذن على اجتناب خبلهم، لأنّ الإكباب على معرفة الله في جوهره هو قمّة الخبل. ولكي يتأكّد لكم أنّه حقيقةً قمّةُ الخبل، سأبيّن لكم ذلك خير تبيين، من خلال شهادة الكتّاب الإلهيّين: فهؤلاء لا يجهلون فقط -كما هو جليّ- من هو في جوهره، بل إنّهم لا يعرفون ما يقولون عن سعة حكمته. والحال، ليس الجوهر هو ما يُشتقّ من الحكمة، وإنّما الحكمة من الجوهر. فعندما لا يتمكّن الكتّاب الإلهيّون حتّى من تحديد تلك الحكمة تحديداً دقيقاً، فما يكون جنون أولئك الذين يظنّون أنّهم قادرون على إخضاع جوهره نفسه لتحاليلهم الخاصّة؟ لنستمع إلى ما يقول الكاتب المقدّس بهذا الخصوص: «علمك كان لي موضع إعجاب»(١١). ولنتبع كلامه بعد ذلك بقليل: «إنّي مباركك لأنك أدهشت برعدة»(١٢). ماذا تعني هذه الكلمة: «برعدة»؟ كثيرة هي الأمور التي نُعجَب بها اليوم، ولكن من غير رعدة. فهناك على سبيل المثال جمال الأعمدة، أو روائع الرسم، أو أجسام في ريعانها. ونُعجَب أيضاً بعِظَم البحر وبغمره اللامتناهي، ولكنّنا نُعجَب به برعدة عندما نطلّ على هذا الغمر. كذلك الكاتب

الإلهيّ ، فقد ألمّ به دوار إذ أطلّ على محيط حكمة الله اللامتناهي وغير المدرك ، فارتدّ على أعقابه صارخاً ، وقد أخذه العجب والرعدة : «إنّني مباركك لأنك أدهشت برعدة ، عجيبة هي أعمالك » ، وأيضاً : «علمك كان لي موضع إعجاب ، لقد قوي فاستحال عليّ بلوغه » .

أنظر مشاعر الخادم النبيلة ، يقول : «أشكرك لهذا السبب : لأنّ عندي سيّداً ممتنعاً فهمه » . إنّه لا يتحدّث هنا عن جوهره : فأن يكون ممتنع الإدراك ، هذا ما يدعه جانباً كما لو أنّه أمر يعترف به الجميع ؛ لا ، بل هو يتحدّث هكذا عن حضور الله في كلّ مكان ، إظهاراً لعدم معرفته المطبق في كيفيّة تفسيره . ولكي أقنعك بأنّه إنّما يتحدّث عن هذا ، إسمع التتمّة : «إذا صعدتُ إلى السماء فأنت هناك ، وإذا اضطجعتُ في الجحيم فأنت حاضر»[١٣] . أتفسّر أنت لنفسك كيف أنّ الله حاضرٌ في كلّ مكان ؟ إنّ النبيّ ، هو ، لا يفهمه ، فهو يشعر بدوار واضطراب ورعدة عندما يحاول فقط أن يصوّره لنفسه . أليس هذا إذن قمّة العته أن يدّعي أناس أقلّ نعمة من هذا النبيّ سبر جوهر الله ذاته ؟ ومع ذلك ، هو هذا النبيّ عينه من قال : «وكشفت لي عن مكنونات حكمتك »[١٤] . وبالرغم من هذه المعرفة لمكنونات حكمته وخفاياها ، يعلن أنها من ذاتها ممتنعة التصوّر والإدراك ، لأنه يقول : «الربّ عظيم وعظيمة قدرته ، وليس لعظمته استقصاء »[١٥] ، أي لا يدركها فهمٌ . فماذا تقول ؟ إنّ الحكمة ممتنعة الإدراك على النبيّ ، أفيكون الجوهر لدينا قابلاً للإدراك ؟ أليس ثمّة خبل جليّ وواضح ؟ إنّ عظمته لا حدّ لها ، وأنت تدّعي الإحاطة بجوهره ؟

لقد قال أشعيا متأمّلاً في هذا الموضوع : «أمّا مولده فمن سيصفه ؟ »[١٦] إنّه لم يقل : «من يصفه ؟ » ، بل : «من سيصفه ؟ » ،

وبهذا نفى إمكانيّة ذلك في المستقبل. وداود من جهته: «علمك كان لي موضع إعجاب» (١٧). لكنّ أشعيا قد أقصى إمكانيّة وصف المولد الإلهيّ لا عن نفسه فقط، بل عن الطبيعة البشريّة بأسرها أيضاً. ولكن، تُرى بولس ألم يعرفه، لكونه ينعم بنعمة أوفر؟ والحال أنّه هو القائل: «إنّنا نعلم علماً ناقصاً، ونتنبّأ تنبّؤاً ناقصاً» (١٨). وهو لا يقول ذلك في هذا الموضع فقط، وإنّما في مكان آخر، إذ يتحدّث هو أيضاً لا عن الجوهر بل عن الحكمة المتجلّية في العناية الإلهيّة، لا العناية عامّة، تلك التي تسهر على الملائكة ورؤساء الملائكة والقوّات العلويّة، بل عن هذا الجزء من العناية الذي يهتمّ بالبشر على الأرض، ومن أحد وجوهه الخاصّة أيضاً. ذلك أنّه لا يتفحّصها في مجملها، في أنها تجعل الشمس تشرق، وتقود النفوس إلى الحياة، وتجبل الأجسام، وتقوت الناس في هذه الدنيا، وتفيض محاصيل كلّ فصل من فصول السنة. كلاّ، فهو يدع كلّ هذا جانباً، ولا يتطلّع إلّا إلى جزء من العناية الإلهيّة غاية في الصغر، من حيث إنها أقصت اليهود واحتضنت الوثنيّين. وإذ يلتفت إلى هذه النقطة الزهيدة، يقفز فجأة إلى الوراء مصعوقاً وكأنّه شاهد خضمّاً أو هاوية فاغرة فاها، فيصرخ صرخة عظيمة: «يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه! ما أبعد أحكامه عن التنقيب...» (١٩). إنه لم يقل «عن الإدراك»، بل «عن التنقيب». فإذا كان سبرها غير ممكن، فإنّ فهمها أيضاً لأصعب بكثير. «[وما أبعد] طرقه عن الاستقصاء» (٢٠)، فإن كانت طرقه لا تُستقصى، أفيكون هو نفسه قابلاً للإدراك؟ أجبني. وماذا أقول، طرقه؟ إنّ الثواب الذي يخبّئه لنا هو أيضاً ممتنع الإدراك. لأنّ «ما لم ترَهُ عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر، ما أعدّه الله للذين يحبّونه» (٢١). زد على ذلك أنّ

عطاءه لا يُعبَّر عنه : «فشكراً لله على موهبته التي لا توصَف»[٢٢] ، وأيضاً «إنّ سلامه يفوق كلّ فهم»[٢٣] .

فماذا تقول أنت؟ ها إنّ أحكامه بعيدة عن التنقيب ، وطرقه لا يمكن استقصاؤها ، وسلامه يفوق كلّ فهم ، ومواهبه لا توصَف ، وما أعدّه الله للذين يحبّونه لم يخطر على قلب بشر ، وعظمته لا حدّ لها ، وعلمه دون قياس . هكذا ، فكلّ شيء فيه ممتنع الإدراك ، أيكون هو وحده قابلاً للإدراك؟ كيف يسع المرء أن يدّعي ذلك دون أن يكون في قمّة الجنون؟ إستوقف الجاحد ولا تدعه يفلت . قل له : ماذا يقول بولس؟ «إنّنا نعلم علماً ناقصاً» . فيجيبني إنّه لا يقول هذا عن الجوهر الإلهيّ ، وإنّما عن سياسة الكون . نِعْمَ الجواب : فلوكان المقصود حقّاً سياسة الكون لزاد الأمر سهولة في إحراز النصر ؛ لأنه لو كانت هذه السياسة ممتنعة الفهم ، فكم بالأحرى الله نفسه ! ولكنّه يتكلّم في هذا الموضع ، لا عن سياسة الكون بل عن الله ذاته . وفي الواقع ، اسمع التتمّة : فبعد أن قال : «إنّنا نعلم علماً ناقصاً ، ونتنبّأ تنبّؤاً ناقصاً» أضاف : «في الوقت الحاضر ، أعلم علماً ناقصاً ؛ ولكن حينئذ ، سوف أعلم كما عُلِمت أنا نفسي» . ولكن من قِبَل من قد عُلِمَ هو؟ أمن قِبَل الله ، أم من قِبَل سياسة الكون؟ لا شكّ أنه قد عُلِم من قِبَلَ الله وبالتالي ، فهو يعلم الله أيضاً علماً ناقصاً .

وقوله «ناقصاً» لا يعني أنّه يعلم قسماً من الجوهر الإلهيّ ويجهل الآخر – لأنّ الله بسيط – ولكن لأنه يجهل من هو الله في جوهره ، رغم أنّه عارف بوجوده . ومع علمه أنه حكيم ، فهو يجهل مدى سعة حكمته ؛ وبالرغم من معرفته أنّه عظيم ، فهو لا يعلم سعة تلك العظمة

ولا طبيعتها. ورغم أنّه عارف بوجوده في كلّ مكان، فهو لا يعرف كيف يمكن أن يتمّ ذلك. وبالرغم من علمه أن الله يعرف مسبّقاً كلّ شيء، بأدقّ تفاصيله، ويثبّته ويوجّهه، فهو يجهل الطريقة التي يعمل بها. فلهذا السبب يقول: «إنّنا نعلم علماً ناقصاً، ونتنبّأ تنبّؤاً ناقصاً».

حتّى الملائكة لا يمكنهم إدراك الله

ولكن لنَدَع إنْ شئتم بولس والأنبياء، ولنرتفع إلى السماوات: أتُرانا نجد فيها أرواحاً تعرف الله في جوهره؟ إنّه صحيح جدّاً، لو وجدنا بعضاً منها، أنّه لا شركة بيننا وبينها، إذ هي رحبة المسافة التي تفصل الملائكة عن البشر. ومع ذلك، فلكي تعرف معرفة اليقين أنّه ما من سلطة مخلوقة حتّى في الأعالي تحوز هذا العلم، لنستمع إلى الملائكة. ما الأمر؟ هل يتخاطبون في الأعالي عن الجوهر الإلهيّ، أيتناقشون بشأنه في ما بينهم؟ البتّة. ولكن ماذا يفعلون؟ إنّهم يمجّدون ويتعبّدون ويصعّدون دونما توقّف نشائدهم الظافرة والسرّيّة، مع شعور بوقار جليل. فالبعض يهتفون: «المجد لله في العلى»[٢٤]، والسيرافيم بدورهم: «قدّوس، قدّوس، قدّوس»[٢٥]، ويشيحون بعيونهم إذ لا يستطيعون أن يطيقوا تنازل الله. أما الشيروبيم فينشدون: «مبارك مجد الرب من مكانه»[٢٦]. لا يعني هذا أنّ الله سجين مكان، حاشى وكلاّ. إنّه كما لو قلنا بتعبير بشريّ: «حيث يكون»، أو «مهما تكن طريقة كونه»، إنْ كان التكلّم عن الله بهذا الشكل حكيماً، بيد أنّا لا نملك سوى تعابير بشريّة.

هل لاحظت أيّة مخافة تسود في الأعالي، وأيّ ازدراء هنا على

الأرض؟ أولئك يرفعون التمجيد، وهؤلاء يفتّشون عن إرضاء فضولهم؛ أولئك ينشدون التقاريظ، وهؤلاء ينشغلون باهتمامات سطحيّة؛ أولئك يخشعون بأبصارهم، وهؤلاء يجتهدون دون وجل في الشخوص بعيونهم إلى المجد الذي لا يوصف. فمن ذا الذي لن يئنّ ولن يبكي على ضلال وجنون في مثل هذا الإغراق؟

هدف الخطيب

كان بودّي التوسّع في هذه النقطة توسّعاً أرحب؛ ولكن، بما أنّني أخوض اليوم هذا الهجوم لأوّل مرّة، أظنّ أنّه مفيد لكم أن تكتفوا بالكلمات التي خاطبتكم بها لتويّ، خشية أن ينتزع منكم ما سوف يتبع منها، بارزاً بكلّ غزارة واندفاع عظيم، تذكّر الأولى. على كلّ حال، سنتطرّق إلى الموضوع مرّة أخرى على مهل، إن شاء الله. لقد وطّدت العزم، منذ زمن طويل، على التوجّه إليكم بمثل هذه الكلمات؛ ولكنّي كنت أتردّد وأماطل، لأنّي كنت أرى الكثيرين من أولئك الذين أعداهم هذا الضلال يأتون فيستمعون إليّ بلذّة. فكنت أحرّم على لساني أن يقوم بهذا الهجوم غير راغب في إخافة طريدتي، وفي نيّتي أنّه سيحين الوقت الذي سأميط فيه اللثام عن غارتي، بعدما أكون قد أحكمت السيطرة عليهم. ولكن بما أنّني، بنعمة الله، قد سمعتهم يدعونني هم أنفسهم بصخب إلى خوض هذه المعركة، تهيّأت منذئذٍ بثقة للعراك، فأمسكت بالأسلحة الكفيلة بتدمير كلّ برهان وكلّ تشامخ ينتصب ضدّ معرفة الله. زد أنّ هذه الأسلحة إنّما قد أمسكتُ بها لا من أجل جندلة خصومي، بل من أجل إنهاضهم إذ هم مطروحون أرضاً. وهذه هي فعلاً قوّة هذه الأسلحة: إنّها تعرف أن تنهال على

المعاندين، وتعرف أيضاً أن تعالج بغيرة فائقة المستمعين المستقيمي الطويّة. وبدل أن تحدث جروحاً، فهي تبرىء من الأمراض.

سلوك المؤمنين تجاه أعداء الايمان

لا نحتدمنّ إذن على هؤلاء الرجال، ولا نجعلنّ غيظنا بيننا وبينهم. لنتحدّث إليهم برويّة، لأنه ما من شيء أقوى من الرويّة والعذوبة. ولهذا السبب أيضاً، أوصى بولس أن يُراعى هذا السلوك باجتهاد كبير قائلاً: «يجب على عبد الربّ ألّا يشاجر، بل أن يكون ذا رفق نحو الجميع»[(٢٧)]. فهو لم يقل: «نحو الإخوة وحسب»، بل «نحو الجميع». وأيضاً: «ليظهر حُلمُكم...»، ولم يَقُل «لدى الإخوة»، بل «للناس جميعاً»[(٢٨)]. وبالفعل، إنّه مكتوب: «ماذا ينفع أن تحبّوا الذين يحبّونكم؟». فإنْ كانت صداقتهم مضرّة بك وتجرّك إلى المشاركة في زندقتهم، فأعرض عنهم حتّى لو كانوا أهلك الأدنين! كذلك، إنْ أَتت عينُك عليكَ بالضرر فافقأها! لأنّه مكتوب: «إن شكّكتك عينك اليمنى فاقلعها!»[(٢٩)]. من الأكيد أنّ الجسد ليس هو المقصود هنا. لأنّه لو كانت الطبيعة الجسديّة هي المقصودة لتوجّه الاعتراض إلى مبدع هذه الطبيعة. ومن ناحية أخرى، فما يجب اقتلاعه ليس عيناً وحسب، إذ اليسرى الباقية سوف تشكّكنا بمقدار العين اليمنى. ولكن، كي تعلم أنّ العين غير مقصودة، فقد أشير إلى العين اليمنى للدلالة أنه حتّى لو كان لك صديق يعزّ عليك عزّة عينك اليمنى، فإنّه ينبغي أن تتحاشاه وتفسخ هذه الصداقة، في حال تسبّبت لك بالشكّ. وفي الواقع، ماذا ينفع أن يكون للمرء عين تحمل الهلاك إلى كامل الجسم؟ فعندما تسيء إلينا إذن بعض الصداقات، علينا أن

نقطع الصِّلات ونهرب كما أسلفت. ولكن، عندما لا تؤذينا ولا تحملنا على الأفكار النكراء، فلندعُ إلينا هؤلاء الأصدقاء ولنجتذبهم. وبخلاف ذلك، إن لم تكن أنتَ ذا نفع لهم، وكنت تتلقّى منهم الأذى، فانتهزها فرصة بالانقطاع لئلاّ يلحقك ضرر، واجتنب الصداقات عندما تكون مؤذية؛ واهرب منها فقط دون صراع ولا مشاجرة. على هذا يحرّضك بولس عندما يقول: «سالموا جميع الناس إن أمكن، وما استطعتم إلى ذلك سبيلاً» (٣٠).

الوداعة التي يعلّمها المسيح

أنت خادم ربّ السلام: هو الذي كان يطرد الشياطين ويفيض أعمال خير لا تُحصى، عندما اتُّهم بأنّ به مسًّا من الشيطان لم يصرع شاتميه ولم يسحقهم، ولم يحرق لسانهم الفاجر والمعتوه بالرغم من اقتداره على ذلك. لقد اكتفى بردّ الاتّهام عن نفسه قائلاً: «لا، ليس بي شيطان، وإنّما أكرم الذي أرسلني» (٣١). وعندما لطمه عبد رئيس الكهنة، ماذا قال؟ «إن كنتُ تكلّمتُ بسوء، فبيّن أين هو السوء؛ وإن بصوابٍ، فلِمَ تضربني؟» (٣٢). فما دام سيّد الملائكة يدافع عن نفسه ويؤدّي الحساب لعبد، لم يعد من حاجة إلى استفاضة في الخطابة. اكتفِ بمراجعة هذه الألفاظ في ذهنك وبالتأمّل فيها دون كلل، وبالقول: «إنْ كنتُ تكلّمتُ بسوء، فبيّن أين هو السوء؛ وإن بصوابٍ، فلِمَ تضربني؟». وتمعّن في من يتكلّم وإلى من يتكلّم وبأيّ خصوص، فتكون هذه الألفاظ لديك مثل افتتان سحريّ، إلهيّ المصدر وطوع بنانك على الدوام، وجدير بأن يهدّىء كلّ استعار في نفسك. نعم، تمعّن في منزلة من يُهان وفي سفاهة من يهينه وفي جسامة

المهانة نفسها. لأنّه لم يشتمه فقط بل ضربه، ولم يضربه فقط بل لطمه، وهذا من الضرب أحقره؛ وبالرغم من ذلك، فقد تحمّل الكلّ لكي تتعلّم أنت الصبر بالأحرى. لا ينبغي علينا أن نفكّر بهذا الآن فقط، بل أن نتذكّره أيضاً عند الحاجة. إنّكم تستحسنون ألفاظي، فأظهروا أيضاً استحسانكم بأعمالكم. وفي الواقع، إنّ البطل الرياضيّ لا يتمرّن في الميدان إلّا من أجل أن يظهر من ثمّ نفع هذه التمارين في أثناء النزالات. وأنت أيضاً، عندما يحلّ الغضب أظهر الإفادة التي جنَيتَها ممّا سمعتَ هنا، وكرّر هذه الجملة باستمرار: «إن كنتُ تكلّمتُ بسوء، فبيّن أين هو السوء، وإن بصوابٍ، فلِمَ تضربني؟». أنقش هذه الكلمات في ذهنك؛ وإذا كنت أُردّدها عليكم باستمرار فلكي أستذكركم جميع كلماتي السابقة، لكي يبقى لكم منها تذكار لا يُمحى، وكيما تستخلصوا من هذا التذكار نفعاً مستديماً. لأننا إن حافظنا على هذه الكلمات منقوشة في صميم ذهننا، فلن يكون أحدٌ منّا قاسياً وغبيّاً وفاقد الإحساس كي ينقاد إلى الغضب. إنّها ستكون قادرة على لجم لساننا وكبحه حينما يتجاوز الحدّ واللياقة، وعلى تهدئة خاطرنا وهو في غليانه، وعلى المحافظة عليه دوماً في الاعتدال، وعلى إحلال السلام التامّ فينا بصورة نهائيّة. ليتنا نظفر بهذا السلام أبداً، بنعمة ربّنا يسوع المسيح ومحبّته، الذي به يليق المجد وبأبيه وروحه القدّوس، الآن وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين، آمين.

الحواشي

(١) نجد في التقليد المخطوطي عبارة «Τοῦ αὐτοῦ» أي «منه نفسه، من الذهبيّ الفم نفسه...»

(٢) الأسقف فلافيانوس الذي خلف ملاتيوس (+ ٣٨١) على كرسيّ أنطاكية، في آب أو أيلول ٣٨١.

(٣) في ٢: ١٢

(٤) يو ١٣: ٣٥

(٥) ١ كو ١٣: ٣

(٦) المرجع نفسه، ١٣: ٨ و١٣

(٧) سفر الجامعة ١٢: ١٣

(٨) ١ كو ١٣: ١١

(٩) مز ٨: ٢ – ٣

(١٠) راجع خر ٤: ٨ – ٩

(١١) مز ١٣٨: ٦

(١٢) المرجع نفسه، ١٤

(١٣) المرجع نفسه، ٨

(١٤) مز ٥٠: ٨

(١٥) مز ١٤٤: ٣

(١٦) أش ٥٣: ٨

(١٧) مز ١٣٨: ٦

(١٨) ١ كو ١٣: ٩

(١٩) رو ١١: ٣٣

(٢٠) المرجع نفسه

(٢١) ١ كو ٢: ٩

(٢٢) ٢ كو ٩: ١٥

(٢٣) في ٤: ٧

(٢٤) لو ٢: ١٤

(٢٥) أش ٦: ٣

(٢٦) حز ٣: ١٢

(٢٧) ٢ تيم ٢: ٢٤

(٢٨) في ٤: ٥

(٢٩) متّى ٥: ٢٩

(٣٠) رو ١٢: ١٨

(٣١) يو ٨: ٤٩

(٣٢) يو ١٨: ٢٣

العِظَةُ الثَانيَـة

[من القدّيس نفسه. بضعة أيام بعد حديثه السابق ضدّ القائلين باختلاف في الجوهر، تحدّث يوحنّا ضدّ اليهود ثمّ لزم الصمت بسبب حضور أساقفة، وبسبب أعياد شهداء كثيرين. وها هو يعود بصدد اللاّمدرَك، إلى القائلين باختلاف في الجوهر].

لماذا طال انتظار هذا الخطاب؟

هيّا، لندخل الميدان ثانية من أجل منازلة الزنادقة القائلين باختلاف في الجوهر. وإذا ما كانوا يغتاظون لدى سماع مناداتهم بالزنادقة، فليغيّروا مسلكهم أبدّل أنا من لهجتي، وليحجموا عن أفكارهم الكافرة أحجم أنا عن تسمية التقريع هذه. ولكن، إذا لم يأووا إلى جحورهم، بينما هم يحقّرون الإيمان بأعمالهم فيمتلئون هم أنفسهم خجلاً، لماذا يحنقون علينا نحن الذين نقرّعهم بأقوالنا على ما يُبدون هم بأعمالهم؟

لقد سبق لنا أخيراً أن خضنا غمار هذا النقاش كما تذكرون. وكنّا قد باشرنا هذا الصراع عندما أوقفته فجأة المعارك الواجب دعمها ضدّ اليهود [1]: فلم يكن من الفطنة أن نسلو عن أعضائنا الخاصّة المتواجدة في خطر. إنّ الكلام ضدّ القائلين باختلاف في الجوهر مناسب لدى كل سانحة. ولكن، وقد أسقمت إخوتنا وآلمتهم العدوى اليهوديّة، فلو لم نسارع لانتشالهم من اليهوديّة التي أوشكت أن تفنيهم بنيرانها، لما كان نفَع من بعد تحريضُهم وقد أخذت منهم خطيئة [المشاركة في] الصوم [اليهوديّ] كل مأخذ [2].

وبعد المعارك ضدّ اليهود، طالعنا بغتة مانع آخر، ألا وهو حضور الكثيرين من الآباء الروحيّين الذين كانوا يفدون إلى ههنا قادمين من كلّ حدب وصوب. فلم يكن وقتئذ مناسباً أن نسترسل في خطابنا، عندما كان جميع هؤلاء الآباء يأتون فيترافدون مثل أنهر في هذا اليمّ الروحيّ. وأخيراً بعد رحيلهم، تتالت تباعاً ودون انقطاع تذكارات الشهداء، فلم يكن يليق بنا أن نهمل مديح أبطال مثل هؤلاء. أما إذا كنتُ أذكّر بجميع هذه الأحداث وأعدّدها، فذلك كيلا يؤول بكم الأمر إلى أن تنسبوا التأخير الحاصل في استئناف المعارك ضدّ القائلين باختلاف في الجوهر إلى تردّد أو إهمال من جهتنا.

أما الآن إذن وقد فرغنا بعد اليوم من حربنا ضدّ اليهود وعاد الآباء إلى أوطانهم، ونحن قد أفدنا كفاية من مديح الشهداء، فهلمّ! ها هوذا موعد إنهاء هذا الانتظار الطويل الذي زجّتكم فيه الرغبة في الاستماع إلينا. لأنني عارف جيّداً أنّ الرغبة التي تعذّبكم في الاستماع إلى مثل هذه الخطابات ليست أقلّ من تلك التي تخالجني في إلقائها. ومردّ ذلك أنّ مدينتنا قد شُغِفَت منذ عهد سحيق بالمسيح، وأنّكم قد تلقّيتم كميراث من أجدادكم الغيرة التي تحملكم على عدم السماح بإفساد عقائد الديانة.

هل يلزم برهان على هذا؟ لقد انحدر زمن أجدادكم أناس من اليهوديّة مبتغين الحفاظ على الختان وشريعة موسى، مزعزعين صفاء المعتقدات التي علّمها الرسل. فلم يُطِقِ الذين كانوا يقطنون مدينتكم هذه البدعة وهم صامتون، لقد وثبوا على الرجال وثب كلاب جريئة عندما تشاهد ذئاباً تهجم وتبيد القطيع كلّه. ولم يزالوا بصدّهم وطردهم من كلّ مكان حتى انتهوا إلى أن بعث الرسل بمراسيم للمعمورة كلّها،

من أجل قمع هجوم مثيل ضدّ المؤمنين من قِبَل هؤلاء الناس وجميع الذين يمكنهم، من بعدهم، الحذو حذوهم[٣].

القائلون باختلاف في الجوهر ينقصهم، مثل زخريّا، ثقةٌ بالله

كيف ينبغي علينا أن نبدأ هذه العظة ضدّ أعدائنا؟ كيف، إن لم يكن باتّهامهم بالزندقة؟ حقاً، إنّ جميع أفعالهم وجميع مشاريعهم تهدف إلى نزع الإيمان من نفس مستمعيهم. كيف يسعهم أن ينعتوا باتّهام أكثر خطورة، اتّهام الإلحاد؟ فعندما يوحي الله حقيقة يجب علينا أن نقبل كلامه قبول إيمان، دون أن نهتمّ جاسرين بأبحاث متطفّلة.

أن يتّهمني أيّ كان منهم بأني قليل الإيمان، فلن أسخط، لماذا؟ لأنني بأفعالي أظهر ما هي التسمية التي تليق بي. ماذا أقول: «أن أُوصَف بمارق»؟ بل لأُوصَفنَّ بمجنون في المسيح فلأُسرُّ أيضاً بذلك سروري بإكليل، ما دمت سأشارك بولس هذا اللقب. وفي الواقع، إنّه هو القائل: «نحن جهّال لأجل المسيح»[٤]. هذا الجنون أعقل من ضروب الحكمة كلّها، لأنّ ما عجزت عنه الحكمة الدنيويّة قد حازه الجنون بحسب المسيح بصورة موفّقة: إنّه هو الذي طرد الظلمات من الأرض وأعاد إليها نور المعرفة. ولكن، ما هو الجنون بحسب المسيح؟ إنّه تهدئة خواطرنا الشخصيّة عندما تشرد شروداً في غير وقته، وهو إفراغ عقلنا وتحريره من المعرفة الدنيويّة، للتمكّن - عندما يكون المقصود تقبّل تعاليم المسيح - من تقديمه جاهزاً، وكأنّه مكنوس، للكلمات الإلهيّة التي يجب عليه تلقّيها. فعندما يوحي لنا الله حقيقة لا

ينبغي أن تكون موضع بحث فضوليّ، يتوجّب علينا أن نقبلها بالإيمان. وفي ما يختصّ بإيحاءات كهذه، فإنّ إرادة تقصّي الأسباب والقيام بتحقيقات والسعي إلى معرفة كيفيّة حدوثها هي شأن نفس ممتلئة وقاحة ومجازفة. دونكم ما سوف أحاول مجدّداً أن أبرهنه لكم، انطلاقاً من الكتب نفسها.

كان زخريّا رجلاً وقورًا وجليلاً: وإذ تسربل الكهنوت الأعظم، حظي لثقة الله فيه بالمنصب الأول بين جميع الشعب. وزخريّا هذا عينه، إذ دخل قدس الأقداس حيث كان له وحده الحق، باستثناء الآخرين جميعًا، في أن يرفع أنظاره – وتأمل هنا كيف كان يمثّل جمهورًا بأكمله في رفع صلوات الجماعة إلى الله، فيصغي الرب إلى عبيده، وكأنه وسيط بين الله والبشر! – فإذ دخل إذن ذاك المقدسَ الرهيب، رأى ملاكًا واقفًا فيه. فلما «اضطرب زخريّا حين رآه، ووقع عليه خوف، قال له الملاك: لا تخف، يا زخريّا، فإن طلبتَك قد استجيبت... وسيولد لك ابن»[٥].

أين هو إذن الربط المنطقيّ؟ لقد كان يصلّي لأجل الشعب ويطلب رحمة لأجل الخطايا ويتوسّل لكي يُغفَر لإخوته، فقال له الملاك: «لا تخف يا زخريّا، فإنّ طلبتك قد استُجيبت»؛ ثمّ يقدّم برهاناً على أنّها قد استُجيبت، بأن سيولد له ابنٌ، أعني يوحنّا. إنّ هذا الأمر مبرّر تمام التبرير. وفي الواقع، بما أنّه كان يتضرّع لأجل جهالات الشعب، وإذ كان عليه أن ينجب ابناً سوف يصرخ: «ها هو حمل الله الرافع خطيئة العالم»[٦]، فقد قال له الملاك بحقّ: «إنّ طلبتك قد استُجيبت، وسيولد لك ابنٌ».

ماذا إذن فعل زخريا؟ إن ما نسعى إليه هو أن نُظهر بأنها خطيئةٌ لا تغتفر الرغبةُ في أن نعرف كيف ستتحقّق الإيحاءات الإلهيّة، وأنّه يجب بالأحرى قبول هذه الإلهامات بإيمان. لقد كان يتطلّع إلى عمره وشعره الأبيض وجسمه الواهن، كما كان يتمعّن في عقم امرأته فبات غير مصدّق. ثمّ قال ساعيًا في التعرّف كيف سوف يتمّ ذلك: «وكيف لي أن أعرف أنّ هذا سيكون؟» (٧)، أي: «كيف يمكن أن يحدث هذا الأمر؟»، ها أنا ذا شيخ أبيض الرأس وامرأتي عاقر طاعنة في السنّ، ولم يعد الوقت ملائماً للإنجاب، فالطبيعة تتنكّر لذلك. كيف يكون هذا العهد معقولاً؟ إنّني أنا الزارع دون قوّة، والأرض التي للزرع لا تنتج شيئاً. ألا يظنّ البعض أنّه كان جديراً بالمغفرة عندما كان يبحث في تسلسل الأسباب، وعندما كان يبدو أنّه يقول كلاماً حصيفاً؟ لكنّ الله لم يقضِ بأنّه كان جديراً بها، وهو دون ريب على حقّ؛ لأنّه متى تكلّم الله فليس ثمّة ما يدعو إلى إقحام اعتراضات، أو التعلّل بتسلسل الأسباب أو بناموس الطبيعة الحتميّ، أو بأيّ شيء آخر مثيل؛ إذ إنّ قوّة الكلمة الإلهيّة تفوق هذا كلّه، ولا يوقفها أيّ عائق.

ماذا تفعل أيّها الإنسان؟ إنّ الله يَعِد وأنت تلوذ بعمرك وتحتجّ بشيخوختك! ألعلّ الشيخوخة أقوى من وعد الله؟ أم إنّ للطبيعة سلطاناً أكبر ممّا لباري الطبيعة؟ ألست تعلم كم من أعمال جبّارة تجريها كلماته؟ فإنّ كلمته قد أعلت السماء وأبدعت الكون وبرأت الملائكة؛ وأنت، أتشكّ عندما يدور الحديث عن ولادة؟ لهذا السبب اغتاظ الملاك ولم يغفر لزخريّا، رغم اعتبار كهنوته. بل بالأحرى، إنما بسبب هذا قد قاصّة أكثر. لأنّ من يتقدّم على الآخرين من حيث المنزلة يجب عليه أن يفوقهم بالإيمان أيضاً. وكيف نال جزاءه؟ «ها إنّك تكون

أبكم لا تستطيع الكلام»[٨] . أي إنّ لسانك الذي قام بالتعبير عن كلماتك العديمة الإيمان سينال هو نفسه عقاب عدم الإيمان. «ها إنّك تكون أبكم لا تتكلّم إلى أن يتمّ هذا الحدث». تمعّن في صلاح الربّ تجاه البشر، لقد قال: إنّك لم تثق بي فَنَلِ الآن عقابك. وعندما سأبرهن عن صدقي بأحداث، حينئذ ألجم غضبي. ومتى اعترفتَ بأنّك قد نلتَ جزاء عدلاً، فحينئذ أحلّك من عقابك.

ليدرك القائلون باختلاف في الجوهر كم يغتاظ الله لسبره دونما تحفّظ! وإذا كان زخريّا قد عوقب لشكوكه بولادة بشريّة، فأنت يا من يسعى إلى ولوج السرّ المصون لولادة من درجة أسمى، قل لي كيف ستفلت من العقاب؟ إنّ زخريّا لم يؤكّد شيئاً، لقد أراد أن يعرف فقط فلم يجد مغفرة. أمّا أنت يا من يتحامل على إدراك حتّى ما لا يُرى وما لا يُدرَك لدى جميع الناس، كيف سيمكنك أن تحاول الدفاع عن نفسك؟ أيّ عقاب لن تجرّ على ذاتك؟

حماقة الذين يدّعون معرفة الله

أمّا للكلام عن ولادة الله، فلننتظر الوقت المناسب. والآن، لنعد إلى حديثنا السابق، الذي تركناه يومذاك معلّقًا، لكي نحاول أن نستأصل الجذر المشؤوم، أمّ جميع المفاسد، التي ولّدت تلك العقائد التي تبنّوها. فما هو جذر مفاسدهم كلّها؟ صدّقوني، إنّ رعشة من هلع تستحوذ عليّ لحظة أذكر اسمه، لأنّني أرتجف من التعبير بفمي عمّا يلوكونه هم في فكرهم دون هوادة. فما هو إذن جذر هذه المفاسد؟ هو أن رجلاً منهم قد جرؤ على القول: «إنّني أعرف الله كما يعرف الله نفسهُ

ذاتَـهُ ». أيكون مثل هذا التأكيد بحاجة إلى أن يُدحَض ؟ هل يقتضي أن نجابهه ببراهين؟ أليس مجرّد التلفظ بهذه الكلمات كافياً لأن يُظهر كلّ ما فيه من كفر؟ إذ إنّ هذا خبلٌ ظاهرٌ وجنون لا يُغتَفر وضرب من الكفر جديد. فما من أحد قط حتّى الآن قد أقدم على أن يفتكر بشيء مثيل، أو على أن يعبّر عنه بفمه.

تمعّن إذن أيّها التعيس المسكين في من تكون أنت، وفي من تدّعي البلوغ إليه بفضولك ! أنت، أيّها الإنسان، أتهتمّ بإمساك الله تحت نظرك؟ وفي الواقع، حَسْبُ هذه الأسماء وحدها أن تُظهر مغالاة خبلك : الإنسان تراب ورماد، لحم ودم، عشب وزهر العشب، ظلّ ودخان وبطلان، أللهمّ إن لم توجد أيضاً أمور ذات تكوين أخسّ وثمن أبخس يجب مقارنته بها. لا تظنّوا أنّي بقولي هذا أريد أن أتّهم الطبيعة. على كل حال، لست أنا المتكلّم، بل هم الكتّاب الإلهيّون الذين يفصحون هكذا عن آرائهم، لا لكي يلقوا العار على جنسنا، وإنّما لكي يحطّوا من صلف المعتوهين؛ ولا لأنهم يمقتون طبيعتنا، وإنّما لأنّهم يريدون أن يذلّوا هذيان أولئك المجانين المتباهي. وإذ إنّه قد وجد حقّاً، بالرغم من أقوال عديدة وقاسية، أناس يفوقون الشيطان غطرسة، ولو لم يُنطق بأيّ من هذه الأقوال، قل لي، إلى أيّ مكان لم تكن عجرفتهم قد وجّهت رفساتٍ؟ وإذا كانوا لا يزالون مزهوّين كبراً مع أنّ الدواء في متناول يدهم، فكم كان تكبّرهم المعتوه سينتفخ لو لم يبرع الكتبة القدّيسون في التكلّم مراراً كثيرة عن الطبيعة الإنسانيّة؟ إسمع إذن ما يقوله أحد الآباء القدّيسين [إبراهيم] عن نفسه : «أنا تراب ورماد»(٩). لقد كان يخاطب الله. وإمكانيّة التحدّث هذه إليه تعالى هي التي كانت تدفعه حقّاً إلى الاتّضاع، بدلاً من أن تحمله على

التكبّر. ثمّ إنّ أناساً لا يساوون حتّى ظلّ هذا الأب يظنّون أنفسهم أعظم من الملائكة أنفسهم! هذا هو الدليل على أنّهم في منتهى الجنون.

وها هو الله، على قولك، الذي تدّعي أنت أنك فاحصه، الكائن الذي لا بدء له، ولا تحوّل فيه، والذي لا جسد له، والمنزّه عن الفساد، والحاضر في كلّ مكان، والفائق الكلّ والأسمى من الكون كلّه؟ إليك الأفكار التي يتأمل بها فيه الكتّاب الإلهيّون، إسمع وارتعد: «الذي ينظر إلى الأرض فترتعد...» (١٠). حسبه إذن نظرة واحدة لكي يزعزع امتداد الأرض الشاسع. «يمسّ الجبال فتدخّن» (١١)... «ويزلزل الأرض [تحت السماء] من آساسها، فترتجف عَمَدُها» (١٢). يزجر البحر فيُيبسه (١٣). «يقول للغمر: ستنقلب صحراء» (١٤). «رآه البحر فهرب، والأردنّ رجع الى الوراء. طفرت الجبال كأنّها كباش، والهضاب كأنّها صغار نعاج» (١٥). الكون كلّه مرتعد وخائف ومرتجف، وهؤلاء الرجال وحدهم يزدرون ويحتقرون ويهملون خلاصهم الذاتيّ، إنْ لم نقل سيّد العالم!

لقد دعوناهم في ذلك اليوم إلى الحكمة، اقتداءً بالقوّات العلويّة والملائكة ورؤساء الملائكة والشيروبيم والسيرافيم، واليوم بالاقتداء بالخليقة العادمة الشعور؛ ومع ذلك فهم لم يتأثّروا. أما ترى هذه السماء كم هي جميلة، كم هي عظيمة، تجلّلها جوقة الكواكب المزركشة؟ منذ متى بدأت في الوجود؟ ها إن خمسة آلاف سنة، وأكثر أيضاً، قد مرّت على وجودها دون أن تكون هذه المجموعة من القرون قد أذاقتها عورات الشيخوخة. ومثل جسم يافع ومليء بالنُّسغ، يصون زهرة العقد الأوّل من العمر في كامل بريقها ونضارتها، هكذا السماء

حافظت على الجمال الذي آل إليها في البدء، ولم يضعفها الدهرُ قطّ. إنّ هذه السماء، الغاية في الجمال والكبر والضياء، هذه السماء المرصّعة بالنجوم، وغير المتموّلة والكائنة منذ زمن طويل، قد خلقها الله عينه – ذاك الذي تدّعي أنت أنك تُخضعه لفحصك وتُدخله في حدود أفكارك – خلقها بالسهولة عينها التي بها يلهو إنسان في نَصْب كوخ. هذا ما يعبّر عنه أشعيا قائلاً: «بسط السماء كسرداق وفرشها كخباء فوق الأرض». أتريد أن تنظر إلى الأرض أيضاً؟ ولكنّه قد أبدعها وكأنّ أمراً لم يحدث. لأنه إذا كان النبيّ قد قال عن السماء: «بسطها كسرداق وفرشها كخباء فوق الأرض»[١٦]، فقد قال عن الأرض، وهي بهذا القدر من العظمة والاتّساع: «يحتوي محيطَ الأرض، وقد كوّنها وكأنّ أمراً لم يحدث»[١٧].

وفي الواقع، فكّر بكثافة الجبال وبشعوب البشر التي لا عدّ لها، وبالنباتات المتنوّعة والمفرطة النموّ، وبعدد المدن والأبنية العظيمة، وبعدد ذوات الأربع أخيراً والحيوانات المفترسة، وبالحيوانات من كلّ صنف ممّا تحمله على ظهرها! ومع ذلك، فالأرض في امتدادها الشاسع، قد أبدعها بسهولة كليّة. والنبيّ إذ لم يجد تشبيهًا يعبّر به عن تلك السهولة، قال إنّ [الله] خلق الأرض «وكأنّ أمرًا لم يحدث».

لقد وجد الكتّاب الإلهيّون سبيلاً آخر توصّلوا به على قدر طاقتهم فكشفوا لنا المزيد عن قدرة الله، علماً بأنّ عظمة الأشياء المرئيّة وجمالها لا يكفيان كي يُفهمانا قدرة الخالق، وأنّهما يبقيان بالنسبة إلى ذاك الذي برأهما دون عظمته وقوّته الكاملتين. فما هو ذلك السبيل؟ إنّهم لم يكتفوا ببسط عظمة الخلق تحت أعيننا، ولكنّهم أخبرونا عن الطريقة التي تمّ فيها. وهكذا يسعنا من الوجهتين معاً، بالتأمّل بعظمة العمل

المُنجَز من جهة ، وبالسهولة التي أُنجِز فيها من جهة أخرى ، يسعنا أن نكوّن لأنفسنا ، على قدر قوانا ، فكرة صحيحة عن قدرة الله. فلا تعجب إذن فقط من عظمة الأشياء المخلوقة ، ولكن أيضاً من رشاقة الذي أبدعها.

لا تظهر هذه السهولة في ما يخصّ الأرض وحسب ، بل في ما يخصّ الجنس البشريّ نفسه أيضاً. وبالفعل ، فتارة يقول النبيّ : «يحتوي محيط الأرض ، وسكانها كالجراد»[١٨] ، وطوراً يقول : «ها إنّ الأمم أمامه تُحسَب كنقطة من دلو»[١٩] . لا تستمع إلى هذه الكلمات بانتباه سطحيّ ، بل تعمّق فيها وتفحّصها بكلّ عناية. أحصِ جميع الشعوب : السوريّين والذين من كيليكيا والكبّاذوكيّين ، وأهل بيثينيا وسكّان شواطىء البحر الأسود وتراقيا ومقدونيا ، واليونان والجزر وايطاليا ، وما جاوز المناطق المألوفة لدينا ، وسكّان الجُزر البريطانيّة وسارماطيا * والهند ، والقاطنين في بلاد فارس ، ثمّ شعوباً أخرى وأمماً كثيرة العدد لا نعرف حتّى اسمها ، فجميع هذه الشعوب – يقول النبيّ – «هي أمامه تُحسَب كنقطة من دلو». قل لي أنت يا من يدّعي معرفة هذا الإله بعمق ، هو الذي لديه جميع الشعوب «تُحسَب كنقطة من دلو» ، أيّ جزء إذن تكون أنت من هذه النقطة ؟

ولكن ، لماذا يجب التكلّم عن السماء والأرض والبحر والجنس البشريّ ؟ لنرتفع بكلامنا إلى ما فوق السماء ولنبلغ إلى الملائكة. إنّكم تعرفون دون شكّ أنّ ملاكاً واحداً يساوي الخليقة المرئيّة كلّها ، أو بالأحرى أنّه يسمو عليها بكثير. وبالفعل ، إذا لم يكن العالم بأسره خليقاً بإنسان بارّ ، كما يشير إلى ذلك بولس عندما يقول : «هم الذين لم يكن العالم مستحقّاً لهم...»[٢٠] ، فكم بالأحرى لا يسعه أبداً أن يكون

خليقاً بملاك، ما دام الملائكة يفوقون الأبرار كثيراً. ومع ذلك، فهناك في الأعالي عشرة آلاف طغمة من الملائكة وألف ألف من رؤساء الملائكة، والعروش والسيادات والرئاسات والقوات وعدد لا يحصى من القوّات العادمي الأجساد، فجميع هذه القوّات قد براها هو بسهولة لا تستطيع معها أيّة كلمة أن تفسّر كيف براها. ففي جميع الأمور، كفاه أنّه أراد. وكما أنّ فعل الإرادة لا يسبب لنا أيّ تعب، فهو قد خلق دون مزيد جهد عدداً وفيراً من القوّات السامية جدّا. وهذا ما باح به الكاتب المقدّس عندما قال: «وكلّ ما شاء صنع، في السماء وعلى الأرض»[٢١]. فأنت ترى أنّ إرادته وحدها كانت كافية لا في خلق الأمور الأرضيّة فقط، بل في خلق القوّات العلويّة أيضاً.

قل لي، ألا تنتحب على ذاتك لدى سماعك هذا، ألا تنكفىء تحت التراب أنت الذي تطاولت إلى هذا الأوج من الجنون تجاه من يجب مدحه وعبادته ليس إلّا، مستميتاً في سبره وفحصه كأيّ غرض ما؟ ولهذا، فإنّ بولس الممتلىء كلّ حكمة، إذ تمعّن في سموّ الله الذي لا يفي به وصف وفي ضعة الطبيعة البشريّة، يستشيط غضباً على الذين يدّعون أنّهم يلجون أحكامه، فيصرخ في سورة غضبه بشدّة عظيمة: «من تُراك، أيّها الإنسان، حتى تعارض الله؟»[٢٢]. نعم، من أنت؟ تأمّل أوّلاً في طبيعتك: فلا يمكن إيجاد أيّة كلمة قادرة على أن تعبّر عن عدَمكَ.

البون شاسع بين الله والإنسان

لكنّك ستقول : بصفتي إنسانًا ، فأنا أملك امتياز الحريّة. أجل ، ولكنّ هذا الامتياز لم تتلقّه كي يخدمك في المجادلة ، وإنّما كي يتيح لك أن تطيع من أعطاك إيّاه. إنّ الله قد منحك هذا الشرف لا لكي تغيظه ، بل لكي تمجّده. والحال أنّ مَن يسبر جوهره بدافع الفضول ، يغيظه. أجل ، إنّنا إذا كنّا نمجّده بقبولنا وعوده دون فحص لها ، فإنّنا على خلاف ذلك نشتمه ، عندما نشرع في تفحّص وسبر ، لا كلماته فقط ، بل ذاك الذي ينطق بها أيضاً. وكيما تعلم أنّ تقبّل كلماته دون فحص يعادل تمجيده ، إستمع الى ما يقوله بولس عن إبراهيم وعن الطاعة والإيمان اللذين كان يُظهرهما في كلّ أمر : «إذ كان قد تيقّن أنّ جسمه قد مات وأنّ مستودع سارة قد مات أيضاً ، لم يشكّ قطّ في وعد الله بعدم الإيمان ، بل تقوّى في الإيمان...» (٢٣). إنّه يعني أنّه إذا كان السنّ والطبيعة يحملانه على اليأس ، فالإيمان يضع أمامه آمالاً مشرقة. «بل تقوّى في الإيمان ومجّد الله ، موقناً تمام اليقين أنّ الله قادرٌ أن ينجز ما وعد به» (٢٤). إنّك ترى أنّ من ينقاد إلى الاقتناع اقتناعاً تامّـاً بكلّ ما يعلنه الله يمجّد بذلك الله. فإذا كان من يثق بالله يمجّد الله ، فمن لا يثق به يستجرّ الخزي على رأسه هو فقط.

«فمن تُراك أنت حتى تعارض الله؟». ومن ثمّ ، إذ يريد بولس أن يبيّن ما الفاصل بين الإنسان والله ، يعجز بالتأكيد عن بلوغ مرامه بالتمام ؛ ولكنّ التشبيه الذي يستعمله يجيز لنا أن نتمثّل فكرة تفاوت أعظم بكثير. ماذا يقول؟ «ألعلّ الجبلة تقول لجابلها : «لِمَ صنعتني هكذا؟». أوليس للخزّاف سلطان على الطين فيصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان؟» (٢٥).

فماذا تقول ؟ أيتوجّب عليّ أن أخضع لله كما الجبلة للخزّاف ؟ نعم ، يؤكّد بولس ، لأنّ المسافة بين الإنسان والله مشابهة لتلك التي تفصل بين الطين والخزّاف ، أو بالأحرى ما هي مشابهة بل أوسع من ذلك بكثير أيضاً . إنّ الطين والخزّاف لهما فعلاً الجوهر نفسه ، كما هو مذكور في سفر أيوب : ولست أتكلّم عن « الذين يأوون بيوتًا من طين ، إذ نحن أنفسنا مجبولون أيضاً بالطين عينه » (٢٦) . فإذا ما بدا الإنسان أسمى من الطين وأجمل منه ، فليس مردّ هذا الاختلاف إلى تفاوت في الطبيعة ، بل إلى حذق الصانع ، لأنّك لا تتميّز عن الطين في شيء . وإذا ما شككت بهذا فدع النعوش وأجران الموتى تقنعك . إذهب وانظر مدافن أجدادك تعلم أنّ الأمر كذلك . إذن ، لا توجد أيّة مسافة بين الطين والخزّاف ، فيما الاختلاف بين جوهر الله وجوهر البشر هو ما عليه بحيث إنّه لا يعبّر عنه كلام ولا يقيسه فكر . فكما أنّ الطين يستكين إذن ليدي الخزّاف ، مهما كانت الطريقة التي يدوّره بها ويعطيه شكله بواسطتها ، هكذا يتوجّب عليك أن تلبث أبكم كالطين عندما يريد الله أن ينجز أحد مقاصده . لقد تكلّم بولس على هذا النحو لا رغبةً في تقويض حرّيتنا بكلّ تأكيد - لا سمح الله بذلك - أو في مسّ حرّيّة اختيارنا ، وإنما من أجل أن يخرس تبجّحنا بطريقة جذريّة .

لنتفحّص إذا شئت هذه النقطة . ما هي إذن المعرفة التي كان يريد أن ينتهي إليها هؤلاء الذين أخرسهم بولس بمثل هذه الشدّة ؟ هل الجوهر الإلهيّ ما كانوا يسبرون ؟ كلاّ البتّة ، لأن ما من أحد قطّ قد جرؤ على مثل هذا . لقد كانت لديهم تطلّعات أكثر وضاعة ؛ إنّهم كانوا يفتّشون عن معرفة مقاصد الله : لماذا يُعاقَب الواحد مثلاً بينما يُعفى عن الآخر ؟ ولماذا يفلت هذا من العقاب بينما ترهق البلايا كاهل ذاك ؟

ولماذا يحصل الواحد على الغفران وليس الآخر؟ هذا هو صنف الأسئلة التي كانوا يتطارحونها. كيف نستدّل على ذلك؟ بالكلمات التي تقدّمت. أجل، فبولس قد قال: «فهو إذن يرحم من يشاء ويقسّي من يشاء. ولقد تقول لي: فِلمَ إذن يشكو؟ ومن يقاوم مشيئته؟». آنذاك فقط يضيف: «ولكن، من تُراك، أيها الإنسان، حتى تعارض الله؟».

لقد كان هؤلاء الرجال إذن يجتهدون في الولوج إلى مقاصد الله عندما أخرسهم بولس. وهكذا، فهو لا يسمح لهم حتّى بهذا؛ وأنت أتدّعي معرفة الجوهر الكليّ الطوبى الذي تسوس مقاصده الكون؟ ألا تظنّ نفسك مستحقّاً أن تُصعَق عشرة آلاف مرّة؟ فكيف لا يكون مثل هذا الادّعاء قمّة الجنون؟ اسمع النبيّ – أو بالأحرى – الربّ الإله الذي يتكلّم بفمه: «... فإن كنت أنا أباً فأين كرامتي، وإن كنت سيّداً فأين مهابتي...؟»[٢٧]. إنّ الذي يهاب لا يستقصي بل يتعبّد؛ إنّه لا يقوم ببحوث متطفّلة بل يبارك و يمجّد.

تعلّم هذا من القوّات العلويّة ومن الطوباويّ بولس، هو الذي يعيب الآخرين على ادّعاءاتهم لم يصب بالمكروه نفسه. اسمع ما يخاطب به أهل فيليبيّ ليظهر أنّه لا يمتلك إلّا علماً ناقصاً – وهذا ما قاله في رسالته إلى الكورنثيّين: «إنّنا لا نعلم إلّا علماً ناقصاً» – وأنّه لا يعلم بعد كلّ شيء؛ فإذا به يصرخ: «أيّها الإخوة، لا، لستُ أحسَبُ أني قد أدركتُ [الغاية]»[٢٨]. أيّ كلام تراه أنصع من هذا الكلام؟ لقد دوّت هذه الصيحة دويّاً أكثر رونقاً من صوت النفير، معلّمة الأرض بأسرها أنّه يجب القنوع والاكتفاء بالقسط من العلم المقسوم لنا، وعدم الاعتقاد بأنّنا قد أدركنا كلّ شيء.

قل لي بماذا تريد أن تبوح ؟ إنّ لديك المسيح يتكلّم فيك ، وتقول : بالنسبة إليّ ، «لستُ أحسَبُ أني قد أدركتُ [الغاية]» . فيجيب : «إذا قلت ذلك ، فلأنّ المسيح يتكلّم حقًّا فيّ ، إذ هو لقّنني إيّاه» . وهكذا إذن ، بينما يقول بولس : «لستُ أحسَبُ أني قد أدركتُ [الغاية]» ، فإنّ هؤلاء الرجال لو لم يخلوا كليّاً من مؤازرة الروح ، ولو أنّهم لم يبعدوا عن أنفسهم كلّ تأثير آتٍ منه ، لما ذهبوا إلى حدّ التصوّر أنّهم يمتلكون ، هم ، الحقيقة كاملة !

يقول قائل : كيف نعرف أنّ بولس ينوي التحدّث في هذه الفقرة عن الإيمان والمعرفة والمعتقدات ، لا عن السلوك ونمط الحياة ، وكأنّي به يقول : أقرّ بأنّني ناقص في سلوك حياتي ؟ إنّنا نستجلي الأمر منه بكلّ وضوح عندما يقول : «لقد جاهدت الجهاد الحسن وأتممت شوطي وحفظت الإيمان ، إنّما يبقى إكليل البرّ المحفوظ لي»[٢٩] . فالذي أوشك على نيل الإكليل وقد أتمّ شوطه ، لا يمكنه أن يقول : «لستُ أحسَبُ أني قد أدركتُ [الغاية]» . على كل حال ، لا تخفى الأعمال التي يتوجّب فعلها والأعمال التي يجب اجتنابها عن عيون أحد . فهي واضحة وظاهرة للجميع ، حتّى لدى البرابرة والفرس والجنس البشريّ بأكمله .

ولكي أوضح بجلاء أكبر ما أريد قوله ، سوف أردّ الكلمات المذكورة إلى قرائنها . إنّ بولس كان قد قال : «إحذروا الكلاب ! احذروا العمَلة الأشرار ! ...»[٣٠] ؛ ثمّ بعد أن خصّ بعدّة جمل أولئك الذين كانوا يروّجون بلا داعٍ لآراء يهوديّة ، أضاف : «بيد أنّ هذه الأشياء التي كانت لي ربحًا ، قد عددتها خسرانًا ، من أجل المسيح ؛ بل أعدّ كل شيء خسرانًا ... حتى لا أجدَني على البرّ الذي من

الناموس ، بل على البرّ الذي بالإيمَان بالمسيح ، البرّ الذي من الله ، القائم على الإيمَان»[٣١] . ثمّ يحدّد طبيعة هذا الإيمان : «[فمنذ إذن] أعرفه هو ، [وأعرف] قدرة قيامته والشركة في آلامه»[٣٢] .

ماذا تعني «قدرة قيامته» ؟ يرمي بولس من وراء ذلك إلى أنّ حالة جديدة للقيامة قد أُظهِرت لنا . وفي الواقع ، فقد سبق في مناسبات عديدة أن نهض قبله * كثيرون من بين الأموات ؛ إلّا أنّ أحداً منهم لم يَقُم بهذه الطريقة . بل عادوا ثانية جميعهم إلى التراب بعد قيامتهم ، وسقطوا مجدّداً تحت سلطان الموت بعد أن كانوا قد أُعتِقوا لفترة من سطوته . وعلى نقيض ذلك ، لم يعد جسد الربّ إلى التراب بعد قيامته ، لكنّه صعد إلى السماوات ، وسحق قوّة العدوّ كلّها ، وأنهض معه البريّة بأسرها ، وهو الآن جالس على العرش الملكيّ .

وإذ تأمّل بولس في هذا كلّه ، فأراد أن يبرهن على أنّه لا يمكن قطّ لروائع عظيمة ومماثلة أن يتقدّم بها استدلال عقليّ ، بل إنّ الايمان وحده قادر على أن يعرّفنا بها ويؤكدها لنا ، قال : «بالإيمان ، ريثما أعرف قدرة قيامته» . فلئن كان الاستدلال العقليّ لم يستطع أن يصوّر لنا قيامةً – لأنّ هذا يتخطّى الطبيعة ومسار الأشياء العاديّ – فأيّ استدلال يمكنه أن يصوّر لنا هذه القيامة المختلفة اختلافا كليّاً عن جميع الأخريات؟ ولا واحد بكلّ تأكيد . بيد أنّنا لا نحتاج إلاّ إلى الإيمان ، لكي نصدّق أنّ جسداً فانيًا قد قام من بين الأموات وبلغ حياة خالدة لا حدّ لها ولا نهاية . هذا عينه ما يعبّر عنه بولس في موضع آخر بهذه الكلمات : «إنّ المسيح بعدما أُقيم من بين الأموات لا يموت أيضاً ؛ فالموت لا يسود عليه من بعد»[٣٣] . هناك إذن معجزة مزدوجة : معجزة القيامة أوّلاً ، ثمّ القيامة على هذا النحو ! لهذا السبب

يقول : «بالإيمان ، ربما أعرف قدرة قيامته». فإذا ما استحال علينا باستدلالاتنا العقليّة أن نفضي إلى القيامة ، فكم تعظم أيضاً الاستحالة عندما يكون المقصود الولادة الإلهيّة !

في معرض الحديث عن ذلك وعن الصليب والآلام أيضاً[٣٤] ، برهن بولس أنّ جميع هذه الأسرار تتعلّق بقوّة الإيمان. ثمّ بعد أن تكلّم بهذه كلّها ، استطرد قائلاً : «لا ، أيّها الإخوة ، لستُ أحسَبُ أني قد أدركتُ [الغاية]». لا يقول : «أما أنا ، فلن أعرف شيئًا» ، بل «... لستُ أحسَبُ أني قد أدركتُ [الغاية]». إنه يشهد بذلك على أنه لم يدرك لا جهلاً مطبقاً ولا علماً كاملاً. لأن قوله : «لا ، لستُ أحسَبُ أني قد أدركتُ [الغاية]» إنما يبرهن على أننا بلغنا نقطة ما من الطريق ، على أننا نسير ونتقدّم شأوًا أكبر ، ولكن دون أن نكون قد أفضينا بعد إلى الغاية.

هذه هي أيضاً النصيحة التي يسديها للآخرين عندما يتكلّم هكذا : «فلنكن إذن جميعُنا نحن «الكاملين» * على هذا الرأي. وإن كنتم في شيء على رأي آخر ، ففي هذا أيضاً ينير اللهُ أذهانكم»[٣٥]. فليس الاستدلال العقليّ إذن – حسب بولس – ما سوف يعلّمكم شيئاً ، بل الله الذي سوف يثقّفكم وحيه. فأنت ترى جيّداً أنّ المقصود ليس هو السلوك ونمط الحياة ، بل المعتقدات والإيمان. لأنّ السلوك ونمط الحياة لا يحتاجان إلى إيحاء ، وإنّما المعتقدات والمعرفة. وفي موضع آخر ، يعبّر أيضاً عن الحقيقة نفسها قائلاً : «إن ظنّ أحدٌ أنه يعلم شيئًا ، فإنه لا يعلم بعد...»[٣٦]. ولكنّه لا يقول «إنّه لا يعلم شيئاً» وحسب ، بل يضيف : «... كما ينبغي أن يعلم». إذن ، هو يملك حقّاً علماً ، وإنّما علماً غير متين وناقصاً.

ولكي تتثبّت من صحّة هذا، لا داعي البتّة إلى أن نتكلّم عن الأمور الإلهيّة. لنكتفِ إذا أردت باعتبارات مادّية تتعلّق بالخليقة المرئيّة. هل ترى هذه السماء؟ إنّ لها شكل قبّة، وهذا نعرفه لا عن طريق استدلالات عقليّة، وإنّما عن طريق الكتاب المقدّس؛ كما أنّها تكتنف الأرض كلّها، وهذا نعرفه أيضاً عن طريق المصدر نفسه. ولكن ما مادّتها؟ فهذا نجهله. وإذا أيّد شخص ما نقيض ذلك وناقش في هذا الموضوع، فليَقُل إذن من أيّة مادّة مؤلّفة السماء: هل من ماء متجمّدة ثلجاً؟ أو من سحابة مكثّفة؟ أو من هواء مكدّس؟ لا أحد يمكنه أن يخبر عن ذلك الخبر الأكيد. قل لي، أما زلتم تحتاجون إلى دليل للاعتراف بجنون هؤلاء الذين يدّعون أنّهم يعرفون من هو الله؟ هذه السماء التي نراها كلّ يوم لا يسعك أن تقول ما هي طبيعتها، والله الذي لا يُرى تتباهى بأنّك تعرف جوهره معرفة دقيقة! من هو ذاك الذي يخلو من منطق فلا يتبيّن له أنّ الذين يأتون هذا الكلام إنّما هم في ذروة الخبل؟

السلوك حيال القائلين باختلاف في الجوهر

لهذا، أدعوكم جميعاً إلى أن تعاملوا هؤلاء الناس كما يُعامَل المصابون بعاهة نفسيّة والمختلّون عقليّاً، وأن تحاولوا الاعتناء بهم قدر قواكم متحدّثين إليهم بوداعة ورفق. وفي الواقع، إنّ جنونهم هو الذي أحدث فيهم هذا الرأي ودمّلة عقلهم الخطرة هذه. والحال أنّ الخراجات الملتهبة تخشى لمس اليد، ولا تتحمّل أن تُمَسّ بقسوة كبيرة. لذلك يغسل الأطبّاء النُّطُس الجراح التي من هذا النوع بإسفنجة ناعمة جدّاً. وبمَا أنّ عند هؤلاء أيضاً جرحاً ملتهباً في أنفسهم، فلنحاول

تفريغ هذا الخراج بصبّنا عليه جميع ألفاظنا الحسنة لإزالة التورّم، كما لو كنّا نغترف ماء نقيّة وناجعة بإسفنجة رقيقة. وحتّى إذا ما شتموك أيّها الأخ الحبيب، وركلوك وبصقوا عليك فلا تكفّ عن هذه العلاجات الطبّيّة، إذ يتوجّب على الذين يقومون بمعالجة إنسان مصاب بالجنون أن يقاسوا أشياء كثيرة من هذا؛ ومع ذلك، فعليهم ألّا يهملوه جانباً بالرغم من كلّ شيء، بل أن يتحنّنوا عليه ويرثوا لحالته، ما دام هذا عارض مرضه.

هذه الكلمات موجّهة إلى الأقوياء بينكم وإلى الأقلّ تزعزعاً، وإلى هؤلاء القادرين على أن يخالطوا أولئك الناس دون أن يلمّ بهم إثر ذلك أيّ ضرر. وبالعكس، فإنّ من واجب الأكثر ضعفاً أن يهرب من مجتمع هؤلاء الناس ويتنحّى عن أحاديثهم، خشية أن يضحي دافع الصداقة فرصة له للكفر. هذا هو مسلك بولس: فهو نفسه يختلط بالمرضى، كما يقول: «فصرتُ لليهود كيهوديّ، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس»[٣٧]؛ ولكنّه يكفّ تلاميذه والنفوس الضعيفة عن الاقتداء به عندما يسدي هذه النصائح والتعاليم: «إن العِشَر الرديئة تُفسد الأخلاق السليمة»[٣٨]، وأيضاً: «فاخرجوا إذن من بينهم واعتزلوا، يقول الرب...»[٣٩].

عندما يقترب الطبيب من المريض، غالباً ما يكون ذلك خيراً لكلا الاثنين معاً. لكنّ الذي يختلط بالناس غير الأصحّاء وهو نفسه ضعيف، فهو يسيء إليهم وإلى نفسه في آنٍ معاً، لأنّه لا يمكنه أن ينفعهم في شيء، وتكون عدوى مرضهم ضارّة جدّاً له. فالناظرون إلى الأشخاص الذين يشكون التهاب العين يلتقطون هذا المرض[٤٠].

كذلك الذين يختلطون بمجدّفين دون أن تكون لديهم قوّة كافية ، فإنّه يُخشى أن يلتقطوا هم أيضاً عدوى كفرهم.

فلكي نجتنب إذن أخطاراً جسيمة مثل هذه ، يتوجّب علينا أن نهرب من عشرة أولئك الناس ونكتفي بالصلاة والتضرّع إلى الله المحبّ البشر، هو الذي يريد أنّ جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحقّ يبلغون. فلنبتهل إليه أن يحرّرهم من ضلالهم ومن فخاخ الشيطان ، ويعيدهم إلى نور الحقيقة أي إلى الله ، أبي ربّنا يسوع المسيح ، وشركة الروح المحيي والكليّ قدسه ، الذي له المجد والعزّة الآن وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين. آمين.

الحواشي

(١) وعظات الذهبيّ الفم ضدّ اليهود محفوظة، وهي ثمانٍ.

(٢) يتحدّث الذهبي الفم عن أولئك المسيحيين الذين كانوا، في أيامه، يشاركون اليهود في الأصوام التحضيريّة للأعياد أو يعيّدون معهم أو يحضرون احتفالاتهم. أنظر: M. Simon, «Verus Israël»، ص ٢٥٦، عن المسيحيّين المتهوّدين في القرن الرابع.

(٣) أنظر أع ١٥: ١ – ٣١

(٤) ١ كو ٤: ١٠

(٥) لو ١: ١٢ – ١٣

(٦) يو ١: ٢٩

(٧) راجع لو ١: ١٨

(٨) لو ١: ٢٠

(٩) تك ١٨: ٢٧

(١٠) مز ١٠٣: ٣٢

(١١) المرجع نفسه.

(١٢) أي ٩: ٤ – ٦

(١٣) راجع أش ٥١: ١٠

(١٤) أش ٤٤: ٢٧

(١٥) مز ١١٣: ٣ – ٤

(١٦) أش ٤٠: ٢٢

(١٧) أش ٤٠: ٢٢ – ٢٣

(١٨) أش ٤٠: ٢٢

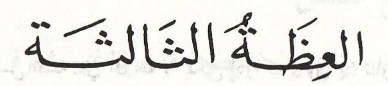
(١٩) المرجع نفسه، ١٥

(*) سارماطيا مقاطعة قديمة في جنوبي روسيّا قطن فيها شعب قادم من بلاد فارس حلّ

مكان شعب السيت وبلغ حدود الدانوب في القرن الأول ق. م.، حيث تمكن الرومان بصعوبة من ضبطهم. وفي ما بعد، شكلوا مع غيرهم من الشعوب المهاجرة، الشعب الجرمانيّ.

(٢٠) عبر ١١: ٣٨
(٢١) مز ١٣٤: ٦
(٢٢) رو ٩: ٢٠
(٢٣) رو ٤: ١٩ – ٢٠
(٢٤) المرجع نفسه، ٢١
(٢٥) رو ٩: ٢٠ – ٢١
(٢٦) أنظر أي ٤: ١٩
(٢٧) ملا ١: ٦
(٢٨) في ٣: ١٣
(٢٩) ٢ تيم ٤: ٧ – ٨
(٣٠) في ٣: ٢
(٣١) المرجع نفسه، ٧ – ٩
(٣٢) المرجع نفسه، ١٠
(*) أي قبل المسيح
(٣٣) رو ٦: ٩
(٣٤) بسبب الكلمات «والشركة في آلامه»، في المقطع المذكور أعلاه، في ٣: ١٠
(*) أي الناضجين في الحياة المسيحيّة
(٣٥) في ٣: ١٥
(٣٦) ١ كو ٨: ٢
(٣٧) ١ كو ٩: ٢٠ – ٢١
(٣٨) ١ كو ١٥: ٣٣
(٣٩) ٢ كو ٦: ١٧
(٤٠) يعبّر القدّيس يوحنا بهذا عن اعتقاد شعبيّ. أنظر

A. MOULARD, «*Saint Jean Chrysostome*», Paris, 1949, p. 18.


العظة الثالثة

[من القدّيس نفسه. في أن الله لا يمكن إدراكه، وفي أن تنازله تعالى لا يمكن أن يطيقه حتى السيرافيم].

ابتهال إلى الروح القدس

عندما يشاهد مزارعون نشيطون شجرة غير مثمرة أو بريّة تعطّل جهودهم، مسيئة بجذورها المتينة أو بظلّها الكثيف إلى النباتات المزروعة، فإنّهم يعجّلون في اقتلاعها. وأحياناً تهبّ الريح فجأة فتساعدهم على انتزاعها: فتنقضّ على الشجرة من رأسها وتهزّها بعنف، ولا تلبث أن تزعزعها وتقلبها أرضاً مخفّفة هكذا عمل الرجال. ونحن أيضاً نريد اقتلاع شجرة بريّة وغير مثمرة، ألا وهي هرطقة القائلين باختلاف في الجوهر. فلنصلِّ إلى الله كي يرسل إلينا نعمة روحه، حتّى إذا ما فاضت بقوّة أشدّ من أيّ ريح تستأصل الهرطقة من جذورها، وتخفّف بذلك كثيراً من عملنا[1].

إنّ أرضاً متروكة بوراً لم تَعُد تحرثها سواعد الناس تنبت غالباً من تلقاء جوفها فيضاً من أعشاب رديئة، وعدداً وافراً من الأشواك والأشجار البريّة. هكذا نفس القائلين باختلاف في الجوهر إذ أُفرِدَت لوحدها وحُرِمَت هذا التثقيف النابع من الكتب المقدّسة قد أنبتت من عمق ذاتها هذه الهرطقة الفاحشة والبريّة. لأنّ تلك الشجرة لا بولس من زرعها، ولا أبُلسُّ من سقاها، ولا الله من

أنماها[٢] : وإنّما زرعتها فضوليّة العقل المتطفّلة ، وسقتها أمزجة تكبّر أحمق ، وتلقّت نموّها من الرغبة في حمل الآخرين على التحدّث عن الذات .

إنّنا نحتاج إلى شعلة الروح كي نستطيع لا انتزاع هذا الجذر الشؤم وحسب ، بل إتلافه بالنار أيضاً . فلنبتهل إليه إذن هذا الإله الذي يجدّفون عليه ونباركه نحن ، ولنطلب إليه أن يحرّك لساننا بطلاقة أكبر ، وأن يفتح أذهاننا لفهم ما سوف نقوله فهماً أكثر وضوحاً .

تسبيح الله يفيد الإنسان لا الله

إنّنا نبذل هذا الجهد كلّه من أجله ومن أجل مجده ، أو بالأحرى من أجل خلاصنا . إذ إنّه من المحال تماماً أن نزيد سناء الله بتسبيحه ، أو أن نلحق به الأذى بإهانته . إنّه يظلّ ممتنع التحوّل في مجده الخاصّ ، دون أن يزداد بتسابيحنا أو ينقص بتجاديفنا . لكنّ أولئك الذين يسبّحونه كما يليق به ، أو بالأحرى على حسب مقدار قواهم – إذ ما من أحد يستطيع أن يؤدّي ذلك كما يجب حقّاً – يجنون فائدة هذا التسبيح ، بينما يعرّض الذين يجدّفون عليه ويحتقرونه خلاصهم الشخصيّ للخطر .

لذا ، فإنّ القول «من رَمى حجرًا إلى فوق فقد رماه على رأسه»[٣] ينطبق على المجدّفين ، لأنّ الذي يرمي حجرًا في الهواء لا يستطيع أن يثقب به القبّة السماويّة ، ولا أن يفضي به إلى ارتفاع شاهق ، لكنّه يتلقّى الضربة على رأسه هو متى سقط الحجر ثانية على من قذف به . كذلك الذي يجدّف على هذا الكائن الطوباوي لن يمكنه الإساءة اليه ، ما دام أعظم وأرفع كثيراً من أن تنتابه منه أيّة

مضرّة؛ والسيف الذي يشحذه هكذا سيضرب نفسه عقاباً له على نكرانه الجميل تجاه محسن كهذا.

فلنبتهل إليه إذن لكونه الإله الذي لا يفي به وصف، ولا يحدّه عقل، ولا يُرى ولا يُدرَك. ولنعترف أنّه يفوق قدرة كلّ لسان بشريّ، وأنّه يفلت من مقابض كلّ فهم زائل، وأنّ الملائكة لا يستطيعون كشفه، ولا السيرافيم تأمّله، ولا الشيروبيم فهمه، لأنّه محتجب عن نظر طغمات رؤساء الملائكة والسلاطين والقوّات وجميع الخلائق دون استثناء؛ الابن والروح وحدهما يعرفانه.

الله ممتنع الإدراك على القوّات السماويّة

أعرف أنّهم سيتّهمونني بالمغالاة في كلامي، لأنني أؤكّد أنّه ممتنع الإدراك حتّى على القوّات العلويّة. ولكنّي سأقنعهم، لهذا السبب، بأنّهم في ذروة خبلهم وجنونهم، إذ ما من مبالغة في أن يُقال إنّ الخالق يفوق إدراك جميع الكائنات التي تدين له بوجودها، بل المبالغة في أن يُقال إنّ الذين يدبّون على الأرض ويصغرون القوّات العلويّة كثيراً يمكنهم احتواء من هو ممتنعٌ إدراكه على هذه القوّات وفهمه بضعف استدلالاتهم العقليّة الخاصّة. أمّا أنا فسوف أعترف بأنّ تعيير المبالغة قد نُسِبَ إليّ بحقّ إنْ لم أتوصّل إلى البرهان عمّا تقدّمت به. بيد أنّكم إن تشبّثتم في النقاش وأصررتم على الادّعاء بمعرفته، كم مرّة تستحقّون أن تُزَجّوا في قعر الهاوية لدفاعكم بصلف عن أنّكم تعرفون المعرفة الدقيقة ما يظلّ ممتنع الرؤية على جميع القوّات التي لا جسد لها؛ وذلك عندما أكون قد أقمت الدليل على أنّ الله ممتنع الادراك على القوّات العلويّة.

هلمّ بنا الآن إذن إلى البرهان ، بعد الركون أيضاً إلى الصلاة ، إذ قد يحدث أحياناً أن يجد الإنسان البرهان المنشود عندما يسلّم أمر القيادة بواسطة الصلاة. فلنضرع إذن إلى الله ، «ملك الملوك وربّ الأرباب ، الذي له وحده الخلود ومسكنه نور لا يُدنى منه ، الذي لم يَـرَهُ إنسان ولا يقدر أن يراه ، له الكرامة والعزّة على الدوام. آمين»[٤] . ليست هذه الكلمات منّي وإنّما من بولس. ولاحظ جيّداً التقوى والحبّ المتأصّلين في نفسه. فعندما يذكر الله لا يقوى على اللجوء إلى بسط عقيدته قبل أن يرفع إليه ابتهال الشكر الذي يدين له به ، مختتماً جملته بمجدلة. وفي الواقع ، إذا كان «ذكر الصدّيق جديراً بالمديح»[٥] ، فإنّ ذكر الله يستحقّ أيضاً أن يُحتَفى به كثيراً جدّاً !

هذا ما يفعله بولس في مقدّمات رسائله : فما إن يذكر الله مفتتحاً به رسالة ما حتّى يحترس في أغلب الأحيان من أن يبسط عقيدته قبل أن يرفع إليه التسبيح الواجب له. إسمع كيف يعبّر عن رأيه عندما يكتب إلى الغلاطيّين : «نعمة لكم وسلام من الله الآب وربّنا يسوع المسيح ، الذي بذل نفسه من أجل خطايانا حتّى ينقذنا من فساد الدهر الحاضر على حسب مشيئة الله أبيه ، الذي له المجد إلى دهر الدهور ، آمين»[٦] . وفي موضع آخر : «لملك الدهور الذي لا يدركه فساد ولا يُرى ، لله الأوحد والحكيم الكرامة والمجد إلى الأبد ، آمين»[٧] .

هل يتصرّف هكذا تجاه الآب فقط دون الابن ؟ ألا اسمع إذن كيف يصنع الأمر نفسه نحو «الابن الوحيد». فبعد أن قال : «إنّني أودّ لو أكون أنا نفسي مُبسَلاً عن المسيح من أجل إخوتي ، ذوي

قرباي بحسب الجسد»، يضيف: «ولهم التبنّي والمجد والعهود والناموس والعبادة والمواعيد؛ ومنهم المسيح بحسب الجسد الذي هو فوق كلّ شيء إله مبارَك إلى الدهور، آمين»[٨]. فإنّما انتقل إذن إلى متابعة كلامه بعد أن رفع فقط تمجيداً إلى «الوحيد» كما إلى الآب، لأنّه يعلم أنّ المسيح قد قال: «ليكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب»[٩].

ولكي تروا جيّداً أنّ الصلاة عينها ستمدّنا بالبرهان، فلنجعلَنَّها نصب أعيننا. يقول بولس: «ملك الملوك وربّ الأرباب، الذي له وحده الخلود ومسكنه نور لا يُدنى منه». أَعِرِ انتباهك دقّة أسلوب بولس، فهو لم يقل: «الذي هو نور لا يُدنى منه»، بل قال: «مسكنه نور لا يُدنى منه». هذا كي تتعلّم أنّه إذا كان مسكنه لا يُدنى منه، فإنّ الله الذي يقيم في هذا المسكن هو أيضاً كذلك، بل أكثر كثيراً! لقد أفصح هكذا عن رأيه، لا بالطبع كي تتصوّر الله في منزل وفي مكان، وإنّما كي تعي بذلك وعياً جليّاً أنّه ممتنع الإدراك.

وهو لم يقل أيضاً: الذي يسكن نوراً لا يُدرَك، ولكن «لا يُدنى منه»، وهذا أقوى بكثير. إذ يقال عن أمر إنّه لا يُدرَك عندما لا يتوصّل الذين يدرسونه إلى ادراكه، بالرغم من بحوثهم وتنقيباتهم. أمّا الذي لا يُدنى منه فهو ما يتوارى منذ أوّل وهلة عن كلّ تنقيب، ولا يمكن أحداً أن يدنو منه. وعلى سبيل المثال، يسعنا القول إنّ عُرض البحر ممتنع الإدراك، لأنّ الغطّاسين الذين ينزلون فيه ويغوصون حتّى أبعد أعماقه لا يتوصّلون إلى وجود قعره. لكنّ ما ندعوه «لا يُدنى منه» هو ما تستحيل منذ البدء دراسته وسبره.

بماذا يمكنك أن تجيب على هذا؟ بأنّه ممتنع الإدراك على البشر،

ولكن لا على الملائكة والقوّات العلويّة. وأنت إذن أتكون ملاكاً وتنتمي إلى جوقة القوّات التي لا جسد لها؟ ألست بشراً من الجوهر ذاته الذي أنا منه؟ أتنسى إذن ما هي طبيعتك؟ ولنفترض أن البشر وحدهم لا يمكن أن يدنوا من الله –مع أن هذا ليس محدّدًا– فبولس لم يقل: إن مسكنه نورٌ لا يمكن أن يدنو منه البشر، بل يمكن أن يدنو منه الملائكة. وبالرغم من ذلك، فلنقدّم هذا التنازل إذا شئت. ولكنّك ألست أنت نفسك بشراً؟ فماذا يجدي نفعاً أنه يمكن الملائكة الدنوَّ منه؟ ما المنفعة التي يجنيها لك هذا عندما تصرّ وتؤكّد بشكل قاطع أنّ الجوهر الإلهيّ يمكن الطبيعة البشريّة إدراكه؟

ولكن لكي تعرف أنّه لا يُمكن أن يدنو منه لا البشر فقط، وإنّما القوّات العلويّة أيضاً، إسمع ما يقول أشعيا. وعندما أقول أشعيا أعني بذلك كلام الروح، بمَا أنّ كلّ نبيّ يتكلّم بفعل الروح فيه: «في السنة التي مات فيها الملك عزّيا رأيت السيّد جالساً على عرش عالٍ رفيع؛ من فوقه السيرافيم قائمون ستةُ أجنحة لكلّ واحد، باثنين يستر وجهه وباثنين يستر رجليه»[١٠].

قل لي لأيّ من الأسباب يسترون وجههم باسطين أمامه أجنحتهم؟ لأيّ سبب سوى أنّهم لا يطيقون احتمال سناء النور المنبعث من العرش وبراقه؟ وبالرغم من ذلك، فإنّهم ما كانوا يشاهدون هذا الصفاء كما هو عندما لا يشوبه أيّ شيء، وما كانوا يتأمّلون الجوهر الإلهيّ ذاته بكلّ رونقه، وإنّما كان نصب أعينهم مظهر لله يلطّفه تنازله. وما هذا التنازل؟ إنّه بالنسبة إلى الله حدث ظهوره وتجلّيه لا كما هو، وإنّما كما يمكن أن يشاهده من هو جدير بهذه

الرؤية ، جاعلاً بين المظهر الذي يقدّمه عن ذاته متناسباً مع ضعف الذين يشاهدونه.

أن يكون ثمّة تنازل في هذه الحالة ، فإنّ كلمات النبيّ نفسها تبيّن ذلك ، يقول : «رأيت السيّد جالساً على عرش عالٍ رفيع». ولكنّ الله ليس بجالس ، لأنّ ذلك وضع الكائنات الجسديّة وحدها. وهو يقول «على عرش» ، لكنّ الله لا يمكن أن يحويه عرش إذ إنّ الألوهة لا تقبل احتواء. وبالرغم من ذلك ، فإنّ هذه القوّات لم تكن قادرة أن تحتمل التنازل الإلهيّ ، مع أنّها كانت قريبة كلّ القرب منه : «والسيرافيم قائمون من حوله». أو بالأحرى ، لهذا السبب عينه لم تكن تستطيع التحديق به لأنّها كانت بجانبه. ولكنّ الروح القدس لا يعني ، في الواقع ، أنّها كانت بجانب الله في المعنى المحليّ. فهو يريد أن يبرهن بذلك أنّها رغم كونها أكثر قرباً منّا إلى الجوهر الإلهيّ ، لم تكن تستطيع مع ذلك أن تتأمّله ؛ ولهذا يقول : «والسيرافيم متحلقّون حوله» ، غير ملمح بذلك إلى المكان ، وإنّما مريداً أن يدلّ بهذا القرب المحليّ على قرابتهم مع الله ، التي هي أوثق به من قرابتنا.

إنّ طابع امتناع الله عن الإدراك يتبدّى لنا نحن أقلّ جلاء ممّا لتلك القوّات السامية ، بكلّ ما يمكنها أن تسمو الطبيعةَ البشريّةَ من صفاء وحكمة ونفاذ ذهن. فكما أنّ الأعمى يدرك أقلّ من البصير طابع أشعّة الشمس الممتنع الدنوّ منها ، كذلك نحن ندرك أقلّ من القوّات العلويّة طابع امتناع الله عن الإدراك. فالمسافة التي تفصل بين بصير وأعمى ليست أكبر من الفرق بينها وبيننا. وأيضاً ، عندما تسمع النبيّ يقول : «رأيت السيّد» ، فلا تتصوّرنّ أنّه رأى جوهره.

إنّه لم يَـرَ منه سوى مظهر يلطفّه تنازله، وتحت شكل أكثر تلاشياً أيضاً من القوّات العلويّة، لأنّه يفتقد قدرة الرؤية عينها التي للشيروبيم.

لا يقوى الإنسان على احتمال مشاهدة ملاك

لِمَ التكلّم عن جوهر الله فيمَا لا يستطيع الإنسان أن يشاهد بدون رعدة جوهر الملائكة؟ ولكي تعلموا أنّ هذا صدق، سأعمل على أن يمثل أمامكم صديق لله، إنسان أعطته حكمته وعدالته الكثير من رباطة الجأش، وقد اشتهر قديماً بعدّة أعمال عظيمة، هو القدّيس دانيال النبيّ. وهكذا، عندما سأظهره لكم مُنهَك القوى شاحباً مترنّحاً، على أثر حضور ملاك، لن يسع أحداً أن يعتقد بأنّ هذا الوهن قد تسبّبت له فيه خطاياه أو ضميره الشرّير؛ ولكن إذ إنّ الثقة بنفسه لا شك فيها، فإنّ ضعف الطبيعة وحده هو السبب في ذلك.

فدانيال هذا كان قد صام مدّة ثلاثة أسابيع؛ لا يأكل الخبز، القوت الشهيّ، ولا يشرب خمراً [ولا مسكرًا]، ولا دخل فمه لحم، ولا ادّهن بدهن. إذّاك حصلت له هذه الرؤية، عندما وُجِدَت نفسه أكثر استعداداً لتقبّل ظهور كهذا، صائرة تحت تأثير الصوم أكثر خفّة وروحانيّة. ماذا قال؟ «رفعت طرفي ورأيت فإذا برجل لابس كتّاناً – أي ثوب كاهن – وحقواه منطّقان بزنّار من ذهب أوفاز، وجسمه كـكنوز طرسيس، ووجهه كمرأى البرق، وعيناه تضيئان كمشعلي نار، وذراعاه ورجلاه كمنظر النحاس الصقيل، وصوت أقواله كصوت جمهور. فرأيت الرؤيا أنا دانيال

وحدي؛ والرجال الذين كانوا معي لم يروا الرؤيا، لكن وقعت عليهم رعدة عظيمة فهربوا. ولم تبقَ فيّ قوّة وتحوّلت نضرتي فيّ إلى ذبول»(١١).

ماذا يعني بقوله «وتحوّلت نضرتي فيّ إلى ذبول»؟ لقد كان دانيال شابّاً جميلاً، فعندما وضعته الرعدة التي سبّبها له بها حضور الملاك في حالة إنسان محتضر، صائراً شاحب اللون ممتقعاً وفاقداً نضارة الفتوّة وكلّ ألوان سحنته، «تحوّلت نضرته فيه إلى ذبول» على حدّ تعبيره. وكما يترك الحوذيّ الألجمة من يده عندما يحلّ به ذعر، فتهرع أحصنته في كلّ صوب وتنقلب عربته، كذلك يحدث الأمر نفسه عادة مع النفس التي يستولي عليها الخوف والقلق: فهي تذعر، وإذ تفلت القوى التي تأتيها من حواسّ الجسم، تهجر الأعضاء التي تخور وتنهار، بعد أن هجرتها النفس وفقدت القوّة التي كانت تحييها. هذا ما شعر به دانيال آنذاك.

وماذا فعل الملاك؟ لقد أنهضه وقال له: «يا دانيال، يا رجلَ رغائب الله، إفهم الأقوال التي أنا أكلّمك بها، وانتصب واقفاً على قدميك، فإنّي الآن أُرسِلتُ إليك»(١٢)، فنهض مرتجفاً. وبما أنّ الملاك كرّر مخاطبته وقال: «من أول يوم وجّهت فيه قلبك... لإذلال نفسِكَ أمام إلهكَ، استُجيب كلامُك، وأتيتُ أنا لأجل كلامك»(١٣)، وقع أرضاً للمرّة الثانية كما يحدث للذين بهم غشيان: تراهم ينتصبون حيناً واقفين، فيعود إليهم رشدهم وينظرون إلينا بينما نحن نسندهم وننضح وجوههم بالماء البارد، ثمّ يُغمى عليهم فجأة بين أذرعنا؛ وهذا ما حصل للنبيّ. فنفسه الممتلئة وجلاً وغير القادرة أن تتحمّل مشاهدة خادم الله هذا الحاضر أمامه، والعاجزة

عن تحمّل سناء هذا النور، وجدت نفسها في اضطراب عظيم لمّا كانت على عجلة من أمرها في الانعتاق من رباط الجسد كما من سلسلة. لكنّ الملاك أمسك بها أيضاً.

ليسمعني هؤلاء الذين يدّعون سبر سيّد الملائكة! إنّ دانيال الذي خشعت أمامه عيون الأسود، هذا الذي كان له وهو في جسد بشر قدرة تفوق البشر، لم يستطع أن يتحمّل حضور ذلك الخادم الآخر لله، وانطرح أرضاً دون نسمة. يقول: «من الرؤيا قد انقلب ما في داخلي...، ولم تترك فيّ نسمة»(١٤). ويأخذ رجال على عاتقهم، وهم الأكثر بعداً عن فضيلة هذا الصدّيق، أن يعرفوا بدقّة كاملة الكائن الأسمى والأوّل، جابل طغمات هؤلاء الملائكة، ودانيال، هو، لم يقدر تحمّل رؤية واحد منهم.

حتّى عندما يلطّف الله من سنائه، تنازلاً، يبقى ممتنع الإدراك

ولكن، لِنَعُد إلى كلامنا السابق ولنبرهن أنّ القوّات العلويّة لا تستطيع احتمال مشاهدة الله حتّى عندما يلطّف من سنائه تنازلاً. وفي الواقع، قل لي ما السبب في أنّ السيرافيم يسترون أنفسهم بأجنحتهم؟ لا لسبب آخر إلّا لإظهار صدق كلمة الرسول بأعمالهم عينها: «ومسكنه نور لا يُدنى منه»؛ كما أنّهم ليسوا الوحيدين في تصرّفهم هذا، فالشيروبيم الذين يتفوّقون عليهم يفعلون الشيء نفسه. إنّ أولئك يقفون بقرب الله، بينما هؤلاء يقومون مقام عرش له. وليس هذا لأنّ الله بحاجة إلى عرش، بل لكي تعلم بذلك منزلة هذه القوّات.

إستمع الآن في ما يخصّ هذه القوّات إلى نبيّ آخر. «كانت كلمة

الربّ إلى حزقيال بن بوزي على نهر كَبار» (١٥) . لقد كان هذا مقيماً إذن على ضفاف نهر كَبار، بينما كان الآخر على ضفاف دجلة (١٦) . وفي الواقع، كلّ مرّة يريد الله فيها أن يُظهر لخدّامه رؤية فائقة، يقودهم إلى خارج المدن، إلى مكان مليء بالهدوء، لكي لا تنشغل نفسهم إلّا بالتأمّل في الظهور السماويّ، إذ لا يقلقها أيّ منظر أو أيّ صخب، متنعّمة بهدوء تامّ.

ماذا رأى حزقيال إذن؟ يقول: «فإذا... بغمام عظيم مقبلٍ من الشّمال... وله ضياءٌ من حوله ومن وسَطها كمنظر نحاسٍ لامعٍ من وسط النار. ومن وسَطها شبه أربعة حيوانات. وهذا مرآها: لها شبهُ البشر. ولكلِّ واحدٍ أربعةُ أوجه، ولكل واحد أربعة أجنحة... [وكانت] عالية وهائلة وأطرُها ملأى عيونًا من حولها في الأربعة... وكان على أروس الحيوانات جَلَدٌ كمنظر البلّور المخيف منبسطٌ على أرؤسها من فوق. [وتحت الجلَد أجنحتُها مستقيمةٌ الواحدُ نحو الآخر]. لكلِّ واحدٍ اثنان يستران أجسامها... وفوق الجلَد [الذي على أرؤسها] شبهُ عرش كمرأى حجر اللازورد، وعلى شبه العرش شبهٌ كمرأى بشر عليه من فوق. ورأيت كمنظر النحاس اللامع في داخله عند محيطه كمرأى نار، من مرأى حقويه إلى فوق. ومن مرأى حقويه إلى تحت رأيتُ مثل مرأى نار والضياءُ يحيط به. ومثل مرأى الغمام في يوم مطر، كان مرأى هذا الضياء من حوله» (١٧) .

وبعد هذا كلّه يضيف النبيّ: «هذا هو مظهر الشبه لمجد الربّ» (١٨) ، مريداً أن يبيّن أنّه لا هو ولا هذه القوّات السماويّة قد اقتربوا من الجوهر الالهيّ ذاته. ألم تلحظ في هذه الحالة، كما في سابقتها، تنازل الله؟ ومع ذلك، فإنّ القوّات عينها تستتر بأجنحتها

للسبب الوحيد الذي أعطيته سابقا، بالرغم من كونها ذات حكمة مفرطة وعلم متّقد ونقاء تامّ.

وكيف نعرف أنّها كذلك؟ من أسمائها عينها. أجل، فكما أنّ الملاك قد تكنّى هكذا لأنّه يعلن للبشر مشيئات الله، ورئيس الملائكة اسمه كذلك لأنّه يترأس على الملائكة، هكذا أيضاً تلك القوّات: فهي تحمل أسماء تدلّنا على حكمتها ونقائها. والأجنحة من جهتها، تكشف عن سموّ طبيعة – ولهذا السبب يمثّلون لنا جبرائيل طائراً، لا لأنّ للملائكة أجنحة، ولكن لكي تعرف أنّهم يتركون المناطق العليا والمقام الأكثر رفعة كي يقتربوا من الطبيعة البشريّة – وهكذا، فالأجنحة المنسوبة إلى هذه القوّات ليس لها من مدلول آخر غير الدلالة على سموّ طبيعتها. فكما أنّ الأجنحة تشير إذن إلى الميزة السامية لطبيعتها، والعرش يعني أنّ الله يستريح فوقها، والعيون تدلّ على حدّة رؤيتها، وقربها من العرش ونشائدها المتواصلة تبيّن يقظتها التي لا يقطعها أيّ سبات، هكذا اسم البعض منها فهو يعبّر عن الحكمة، واسم البعض الآخر عن النقاوة. وفي الواقع، ماذا يعني لفظ «الشيروبيم»؟ العلم الكامل؛ و«السيرافيم»؟ فم من نار. هل ترى كم أنّ أسماءها تدلّ على نقاوتها وحكمتها؟

فإن كان الله بالرغم من تنازله، لا يمكن أن يُرى هناك بدقّة حيث العلم الكامل، أفلا يكون إذن قمّة في الجنون الادّعاء بأنّه يمكن معرفة ما لا يسع هذه القوّات أنفسها أن تتأمّله، ورؤيته رؤية جليّة هناك حيث العلم جزئيّ، على حدّ تعبير بولس: «إننا نعلم علماً ناقصاً، بواسطة مرآة وفي لغز»؟

الدعوة إلى الصلاة لأجل القائلين باختلاف في الجوهر

إنّ الله ممتنع الإدراك لا على الشيروبيم والسيرافيم وحسب، بل أيضاً على الرئاسات والسلطات وكلّ صنف من القوّات المخلوقة. هذا ما كنتُ أريد أن أبرهنه الآن، ولكنّ عقلنا يتقاعس عن ذلك، وقد أرهقه لا عدد الأمور التي ستُقال بل طابعُها المخيف. لأنّ النفس ترتجف وترتعد عندما تدأب على تأمّلات سماويّة لوقت طويل. فلنُنزلها إذن من الأعالي، ولنُعِدها وهي مرتعدة، ولنلجأ إلى تحريضنا الاعتياديّ. وما هو؟ أدعوكم إلى الصلاة من أجل أن يبرأ يوماً الذين يتألّمون من مرض كهذا. فإنّنا إذا كنّا نطلب إليكم التوسّل إلى الله من أجل المرضى، ومن أجل المحكوم عليهم بالعمل في المناجم أو الذين أُجبِروا على عبوديّة قاسية، والذين استحوذ عليهم الشيطان، فكم يتوجَّب علينا كثيراً أن نطلب من أجل أولئك! إنّ كفرهم لأكثر أذيّة من إبليس، إذ هذيان الذين يعذّبهم يُغتَفر بينما لا يمكن هذا الداء أن يُعذَر بأيّ من الأشكال.

كثيرون من الأنطاكيّين يغادرون الكنيسة بعد العظة دون حضور الأسرار

لكنّ بي شوقاً إلى مخاطبة محبّتكم لكي أقصي عن الكنيسة شرّاً مضرّاً، بمَا أنّني قد ألحت إلى الصلاة من أجل المستحوَذ عليهم. فإنّ من الغرابة فعلاً أن نسهو عن أعضائنا المقرّبين إلينا، فيمَا نعتني بغيرة كليّة بأناس خارجين عنّا. فما هو إذن هذا الشرّ؟ إنّ هذا الحشد الغفير المجتمع الآن، الذي يصغي بانتباه عميق إلى الكلمات التي يسمعها، غالبًا ما أفتشّ عنه في أكثر اللحظات قداسة ولكن دون جدوى.

وهذا ما لا أرضى عنه أيّ رضى : فعندما يتكلّم إنسان، وما هو إلّا خادم لله متكلّم، نُظهر إسراعًا عظيمًا وعجلةً فائقة ؛ ونتدافع ونبقى حتى النهاية. وبالعكس، عندما يوشك المسيح أن يظهر من خلال أسراره المقدّسة، تكون الكنيسة خاوية خالية !

كيف يمكن أن يُعذَر مثل ذلك ؟ إنّ هذا الإهمال يُفقدُكم التقاريظ كلّها التي كانت تستحقّها غيرتكم على سماع الكلمة. فمن لن يدينكّم وإيّانا أنفسنا معكم، إذ نرى ثمرة تعاليمنا تتلاشى بسرعة ؟ لأنّكم لو كنتم تصغون كما يجب إلى ما يقال لكم لكنتم قد أظهرتم غيرتكم بأعمالكم. فأن تهرعوا إلى خارج حالما ينتهي الخطاب، إنّما يعني أنّ عقلكم لم يفهم ولم يحفظ شيئاً من الأمور التي قيلت. لأنّ تعاليمنا لو بقيت حقّاً محفورة في نفوسكم لكانت قد أبقتكم في الداخل بكلّ تأكيد، وجعلتكم تشاهدون بتقوى أعمق أسرارنا الرهيبة. وبالعكس، فإنّكم تمضون ما إن ينتهي الواعظ دون أن تفيدوا شيئاً، كما لو كنتم تستمعون إلى مغنٍّ على قيثارة.

ما هو العذر السخيف الذي يقدّمه معظم السالكين هذا المسلك ؟ يقولون إنّ في مقدرتي الصلاة أيضاً في بيتي، بينما يستحيل عليّ سماع إرشاد أو عظة عندي. إنّك تضلّ نفسك أيّها الإنسان ! ولو تستطيع فعلاً أن تصلّي في البيت فلن يمكنك أن تصلّي بالطريقة نفسها، كما لو كنت في الكنيسة حيث يوجد عدد هائل من الآباء الروحيّين، وتصعد صرخة متّفقة نحو الله. إنّك عندما تدعو الربّ في قرارة نفسك لا تُستَجاب كما لو كنت تدعوه بصحبة إخوتك ؛ لأنّ ثمّة هنا شيئاً إضافيّاً ألا وهو اتّفاق العقول والأصوات، ورباط المحبّة وصلوات الكهنة. إذ إنّ الكهنة يرئسون [الاحتفالات] كما ترتفع

معاً نحو السماء صلوات الجمهور التي هي أكثر ضعفاً، مدعومةً بصلوات الكهنة التي هو أقوى.

ومن ناحية أخرى، ما منفعة إرشادٍ إذا لم تكن الصلاة متّصلة به؟ تأتي الصلاة في المقام الأوّل ثمّ تتبعها الكلمة، كما يقول الرسل: «أمّا نحن فلنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة»(١٩). وهكذا يفعل بولس أيضاً عندما يصلّي في مقدّمات رسائله، كي يشقّ نور الصلاة مثل ضوء السراج طريقاً أمام الكلمة. فإذا ما تعوّدت على الصلاة بحرارة لن تحتاج إلى أن يثقّفك خدّام الله الآخرون، فالله سينير هو نفسه عقلك دون وسيط.

عظمة الصلاة العلنيّة

إذا كان لصلاة إنسان واحد فقط قوّة كهذه، فكم تكون الصلاة التي تتمّ مع الجمهور ذات فعاليّة أكبر أيضاً! لأنّ طاقة الجمهور وضمانته أعظم من طاقة وضمانة الصلاة الحاصلة في بيت إنسان، على انفراد. وما أدرانا بذلك؟ إستمع إلى بولس وهو يقول: «هو الذي أنقذنا من هذا الموت الداهم، وسينقذنا؛ أجل إنّا لواثقون أنه سينقذنا أيضاً. ساهموا في ذلك بالصلاة لأجلنا، حتى إن الموهبة التي نعطاها بواسطة الكثيرين، تبعث الكثيرين على الشكر من أجلنا». وهكذا أيضاً بطرس قد أفلت من سجنه: إذ «كانت الكنيسة تصلّي إلى الله، بلا انقطاع، لأجله»(٢١).

فإذا كانت صلاة الكنيسة نافعة جدّاً لبطرس، وقد أخرجت من السجن هذا الركن*، قل لي كيف تزدري أنت فعاليّتها، وكيف يمكنك أن تبرّر موقفك؟ أصغ الى الله نفسه يؤكّد أنّه يقبل أن

ينثني ، عندما تدعوه الجماعة دعاء حبّ. وهذا عندما كان يردّ عنه تشكّيات يونان بخصوص نبتة الخروعة ؛ لقد قال له آنئذ : «لقد أشفقتَ أنت على الخروعة التي لم تتعب فيها ولم تربِّها ، ... أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة ، التي يقيم أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس ؟» [٢٢] . وإنّه يُبرز عمدًا عددَ السكّان ، وهذا لكي تتعلّم أنّ الصلاة التي تجتمع فيها أصوات عديدة ، لها قدرة عظيمة .

أريد أن أبيّن لكم ذلك أيضاً بمثل مقتبَس من التاريخ الدنيوي . فمنذ عشر سنوات أُلقيَ القبض على عشرة أشخاص ، كما تعرفون ، لأنّهم كانوا يحاولون الاستيلاء على السلطة العليا . وقد ثبت ذنب أحدهم وهو رجل ذو مكانة رفيعة ، فاقتيد توّاً إلى الموت بعد أن كُمَّ فمه بكمامة [٢٣] . إذّاك ، هرولت المدينة كلّها إلى الميدان العامّ وقد هجر العمّال أمكنة عملهم ، فانتزع الشعب مجتمعاً كلُّه معاً من الغضب الإمبراطوريّ خلاص هذا المحكوم عليه ، الذي لم يكن ليستحقّ على الإطلاق العفو عنه [٢٤] .

وهكذا ، فعندما تريدون أن تهدّئوا غضب أحد أمراء الأرض تهرعون جميعاً مع أولادكم ونسائكم ؛ ولكن عندما يكون المقصود صلحاً مع ملك السماوات ، وانتشال جميع خطأة العالم من غضبه ، لا خاطىء واحد كما حينئذ ، أو اثنين أو ثلاثة أو مئة ، وتحرير الممسوسين من شباك الشيطان ، أتبقون جالسين خارجاً بدل أن تهرعوا كلّكم معاً ، كي يعفو الله لهم عن عقابهم متأثّراً بتآلف أصواتكم ، ويغفر لكم أنفسكم خطاياكم ؟

فإن كنتَ وقتئذ في الساحة العامّة أم في بيتك ، أم في خضمّ أعمال يستحيل تأجيلها ، ألا ينبغي عليك أن تحطّم القيود التي

تحتجزك ، بعنف أشدّ من عنف الليث ، وتفرّ لكي تشارك في الابتهال الجماعيّ؟ قل لي ، أيّها الأخ الحبيب ، أيّ رجاء خلاص لا ترجو عندئذ؟ ليس البشر وحدهم من يسمعون هذه الصيحات الرهيبة والمقدّسة ، ولكنّ الملائكة يرمون أنفسهم في الوقت عينه عند قدمي الرب ويبتهل إليه رؤساء الملائكة : إنّها اللحظة الأكثر ملاءمة في الدفاع عنهم ، لحظة حلول التقدمة لمساعدتهم.

وكما أنّ الناس يقطعون أغصان شجر الزيتون ، ويلوّحون بها أمام الملوك لكي يردّوهم بواسطة هذا النبات إلى الرأفة والصلاح ، كذلك الملائكة في تلك اللحظة فهم إذ يقدّمون بدل أغصان الزيتون جسد الربّ نفسه ، يبتهلون إليه تعالى من أجل الطبيعة البشريّة قائلين تقريباً هكذا : نصلّي إليك من أجل هؤلاء الذين قدّرت أنت نفسك أنّهم جديرون بأن تطلعهم على حبّك ، إلى درجة أنّك بذلت حياتك. فمن أجلهم نريق تضرّعاتنا ، كما أرقت أنت دمك من أجلهم. نتوسّل إليك من أجلهم ، هم الذين ذبحت جسدك هذا كرمى لهم[٢٥].

ولهذا السبب أيضاً ، يستقدم الشمّاس في تلك اللحظة المستحوَذ عليهم ، ويأمرهم بحني الرأس فقط حتّى يتوسّلوا ، أقلّه ، بوضعيّة جسمهم بمَا أنّه غير مسموح لهم المشاركة في صلوات اجتماع الإخوة. وهو إنّما بهذه النيّة يستقدمهم ، كي تستعمل ما لك من حظوة عند الله في صالحهم ، مشفقاً على مصيبتهم وخرسهم. وإذ نفكّر بهذا كلّه ، لنهرع في تلك اللحظة إلى أن نجلب علينا الرحمة الإلهيّة ، ونجد لنا حظوة ومساعدة مناسبة.

تحريض أخير

لقد استحسنتم ألفاظي ، وتلقيّتم هذا التحريض بتصفيق حماسيّ كبير[٢٦] . إلّا أنّكم كي تظهروا لنا استحسانكم أعمالاً ، لن يمرّ زمن طويل على انتظار هذا البرهان عن انقيادكم ؛ لأنّ الصلاة تخلف مباشرة التحريض. ها هوذا الاستحسان وها هو التصفيق اللذان أبحث عنهما : اللذان يعبّر عنها بالأعمال. فتداعوا إذن إلى البقاء في المكان الذي تشغلونه ؛ وإن أبدى أحد بينكم حركة لكي يذهب فأمسكوه بقوّة. وهكذا ، بنوالكم ثواباً مضاعفاً على غيرتكم الخاصّة واعتنائكم بإخوتكم ، تستطيعون أن تحصلوا على الخيرات الحاضرة والمستقبلة ، إذ تجعلون الله راضياً عنكم بنعمة وصلاح ربّنا يسوع المسيح ، الذي به وبوحدة الروح القدس يليق كلّ مجد وقدرة للآب ، الآن وإلى دهر الدهور. آمين.

الحواشي

(١) كثيرًا ما يستخدم الذهبيّ الفم تشابيه مأخوذة من حياة المزارعين. ويقارن بين سلطة المُزارع على النباتات وسلطة الكاهن الروحيّة على الأنفس واعتنائه بها.

(٢) راجع ١ كو ٣ : ٦.

(٣) حك، ابن سيراخ ٢٧ : ٢٨

(٤) ١ تيم ٦ : ١٥ – ١٦

(٥) أم ١٠ : ٧

(٦) غلا ١ : ٣ – ٥

(٧) ١ تيم ١ : ١٧

(٨) رو ٩ : ٣ – ٥

(٩) يو ٥ : ٢٣

(١٠) أش ٦ : ١ – ٢

(١١) دا ١٠ : ٥ – ٨

(١٢) دا ١٠ : ١١

(١٣) المرجع نفسه، ١٢

(١٤) المرجع نفسه، ١٦، ١٧

(١٥) حز ١ : ٣

(١٦) ألا وهو دانيال. راجع دا ١٠ : ٤: «في اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأوّل، كنت على حافّة النهر الكبير، نهر دجلة».

(١٧) حز ١ : ٤ – ٢٨ مع بعض الحذوفات.

(١٨) المرجع نفسه، ٢٧.

(١٩) أع ٦ : ٤

(*) راجع غلا ٢ : ٩

(٢٠) ٢ كو ١ : ١٠ – ١١

(٢١) أع ١٢ : ٥

(٢٢) يونان ٤ : ١٠ – ١١

(٢٣) تبعاً للتقليد القديم؛ راجع هيرودوتوس ٣ : ١٤: «والأفواه ملجومة».

(٢٤) يبدو أنّ هذا يرجع إلى المؤامرة التي هدفت في أنطاكية نفسها، أيّام حكم فالنس، إلى أن تولّيَ كاتبَ العدل ثيوذورس على الإمبراطوريّة. وحده الفيلسوف سيمونيدُس، أحد المتآمرين، أفلت من الموت. ويصوّر أميانوسُ مارسيلان سيمونيدُسَ هذا كرجلٍ صارم استحقّ خلاصَه بفضل شجاعته في العذابات. بيد أنّه إذا عُلِمَ أنّ سيمونيدس هذا كان ملتحقاً بالفريق المناوىء للمسيحيّة، المكمّلِ لتقليد يوليانوس الجاحد، يُفْهَمُ

كيف أنّ الذهبيّ الفم يعلنه غير جدير بالنجاة، وينسب خلاصه لا إلى فضله وإنما إلى تدخّل الشعب، الذي توحي به من ناحية أخرى رواية أميانوس.

(٢٥) نجد هنا صورة لصلاة ليتورجيّة.

(٢٦) حول عادة التصفيق في الكنائس، أنظر الذهبي الفم P.G., XLIX, 245


العِظَةُ الرَّابعَـــةَ

[من القديس نفسه، في اللامدرك، ضدّ القائلين باختلاف في الجوهر].

تلخيص

يسعنا أن نكتفي بالبرهان الذي أقمناه مؤخّراً على أنّ الله ممتنع الإدراك على البشر، بل على الشيروبيم والسيرافيم، لكي نعتقد أنّ مهمّتنا قد انتهت وأنّ ما من شيء بعد يتوجّب علينا فِعله. ولكن، لمّا كان غرض أمانينا وجهودنا الرئيسيّ تثقيف محبّتكم أكثر فأكثر، أقلّ منه إفحاماً لمناهضينا، فإنّنا نعود اليوم أيضاً إلى الموضوع نفسه ونتابع كلامنا مرتقين به أكثر إلى الأمام. وسيكون للوقت الذي نكرّسه لذلك نتيجة مزدوجة: توسيع معارفكم، وجعل نصرنا أكثر بياناً، مجيزين لأنفسنا تنظيف الميدان من بعِض الاعتراضات التي يمكنها أن تلبث قائمة؛ إذ لا ينبغي فقط قطع الأعشاب المضرّة عند أطرافها العليا – لأنّها ستنبت بعدئذ بدءاً من جذورها المختبئة أسفل –، وإنما يجب اقتلاعها من أحشاء الأرض بل من جوفها، كي تُعَرض عارية تماماً لحرارة أشعّة الشمس بحيث تذبل سريعاً.

وللمرّة الثانية، هيّا بنا ننتقل بالكلام إلى السماء، لا لنمارس فيها بالطبع فضولاً متطفّلاً وبائساً، بل لأنّنا على عجلة من أمرنا لتقويض المماحكات النابية، مماحكات الذين، فيمَا هم يجهلون أنفسهم،

يرفضون القبول بحدود الطبيعة البشريّة. لهذا الغرض، فقد أظهرنا لكم إظهاراً مبيناً أنّ تجلّي الله، بل تجلّي ملائكته أيضاً، لم يقوَ على تحمّله ذاك الصدّيق الذي سردنا قصّته على مسامعكم. إننا وضعنا أمام ناظرَيكم، دون ملل، دانيال المغبوط شاحباً مرتجفاً، وفي حالة قريبة من حالة المحتضرين ونفسه تسعى إلى تحطيم رباط الجسد. فكما أنّه إذا نُفِّرت يمامة مدجّنة ووديعة ترتع في قفصها، تطير فجأة وكلّها قشعريرة صوب السقف فتبحث عن مخرج لها من خلال النوافذ في تهافتها على التخلّص من فزعها؛ كذلك نفس هذا المغبوط، فإنّها كانت تتوق إلى الإفلات خارج جسدها، وتندفع من كلّ جهة نحو الخارج. كما أنها كانت ستفلت بكلّ تأكيد وتنجو بنفسها مسلّمة جسدها لأمره، لو أنّ الملاك لم يُعتقها بسرعة فائقة من فزعها، مستبقاً إيّاها كي يردّها إلى المسكن الذي كانت فيه.

لقد كنّا نتفوّه وقتئذ بهذا كلّه كي يتحرّر هؤلاء من الجنون الذي ينصّبهم مناوئين للربّ، فيعرفوا مدى الفرق الذي يفصل بين الملاك والإنسان، ويفهموا منزلة خادم الله السامية. إنّ هذا الصدّيق لم يقوَ على احتمال مشاهدة ملاك، رغم أنّه كان ينعم بثقة بالله هائلة؛ وهم البعيدون كلّ البعد عن فضيلته يدّعون إخضاع سيّد الملائكة نفسه، لا ملاك ما، لفضولهم! لقد روّض دانيال هياج الأسود بينما لا يمكننا نحن حتّى التغلّب على ثعالب؛ وشقّ تنّيناً وأحكم قبضته على طبيعة هذا الوحش، بفضل ثقته بالله، بينما نخاف نحن من زواحف بسيطة؛ وأوقف سورة غضب أحد الملوك المندلعة كسورة ليث. وعندما استشاط غضب نبوخذنصّر، ضدّ الجيوش البربريّة، بأكثر عنفاً من سيل لهَبٍ، توسّط وكبَته وحوّل الظلمات كلّها نوراً *

وذاك الذي أحدث هذا النور قد استولى عليه دوار أغرقه في ظلمة مدلهمّة، إذ رأى ملاكاً يقترب منه. فماذا يكون عذر هؤلاء الذين يأخذون على عاتقهم الولوج إلى هذه الطبيعة المغبوطة؟

ولكنّنا لم نوقف خطابنا هنا، بل ارتقينا بكلامنا حتّى هذه القوّات الممتلئة حكمة. وأظهرناها لكم محوّلةً أنظارها، وساترةً وجوهَها بأجنحتها، ومنتصبةً على سوقها، وهي تطلق هتافات لا تفتر، وبيـنّا لكم كيف أن تلك القوّات العادمة الأجساد تبدي لنا، بشتّى الوسائل، دهشتها ورعدتها. وبقدر ما هي حكيمة وأقرب منّا إلى هذا الجوهر الطوباوي الذي لا يوصف، فهي تعرف أفضل منّا أيضاً كم هو ممتنع الإدراك. لأنّ الحكمة تُنمي بنموّها التقوى.

لقد قلنا لكم * ما معنى أنه لا يمكن الدنوّ منه، وهو أعظم من أن يكون ممتنع الإدراك، وقد آتيناكم علّة ذلك: ألا وهي أنّ الممتنع الإدراك يلوح كذلك بعد فحص، بينما لا يجيز الممتنع الدنوّ منه حتّى هذا الفحص، بل حتّى البدء المباشرة به. فكان لا بدّ لنا إذّاك من اللجوء إلى صورة عُرض البحر. وأضفنا أنّ بولس لم يقل إنّ الله نور لا يُدنى منه، بل إنّ «مسكنه نور لا يُدنى منه». فإن كان مسكنه ذاته لا يُدنى منه، فكم بالأحرى الله الذي يقيم في المسكن! إنّ بولس بقوله هذا لم يكن يبغي أن يحصر الله في مكان؛ بل أن يبيّن بجلاء أوفى كم هو ممتنعٌ على الإدراك وعلى الدنوّ منه.

لقد استحضرنا أيضاً قوّات أخرى، وهيئة عرش وشبه إنسان، هم الشيروبيم، وأظهرنا كيف يبدو وجود جلَد فوقهم وحجر لازورديّ ومعدن برّاق ونار وقوس الغمام، وكيف أنّ النبيّ كان يقول

بعد كلّ هذا : «هذا هو مظهر الشبه لمجد الربّ» . فبهذه السبل كلِّها ، كنّا نريكم كم يلطّف الله ، تنازلاً ، من سنائه الذي يظلّ ، رغم كلّ شيء ، لا يُطاق حتى من القوّات العلويّة.

ليس تلخيصي كلّ هذا دون قصد : فإذ لكم عليّ دَيْنٌ ، ألا وهو وعدي الذي يجب عليّ البرور فيه ، فإنّي أريد أن أعرف بدقّة ما وفيت به وما يبقى عليّ أن أوفي. هكذا يفعل المدينون : إنّهم يحضرون السجلّ حيث دُوِّنَ حسابهم ، وبعد أن يكشفوه لدائنيهم يدفعون ما يزال متوجّباً عليهم. كذلك الأمر معي ، فإني ، فيما أتصفّح مثل كتاب الذكريات المنقوشة في أذهانكم ، أريكم وأنا أتكلم ، كما بإصبعي ، ما سدّدتُ من دَين قبل أن آتي على ما تبقّى منه.

لا تعرف القوّات السماويّة الله معرفة تامّة

هذا الباقي ، علامَ يشتمل؟ على البرهان لكم أن لا قوّات ولا سيادات ولا رئاسات ولا أيّة قوّة مخلوقة يمكنها أن تُدركَ إدراكاً تامّاً اللهَ ؛ وهناك أيضاً قوّات أخرى لا نعرف حتّى اسمها. فانظر خبل الهراطقة : إنّنا لا نعرف حتّى أسماء الخدّام ، وهم يدّعون تفحّص جوهر السيّد ذاته ! فهناك الملائكة ورؤساء الملائكة والعروش والرئاسات والقوّات والسيادات ؛ وهي ليست الشعوب الوحيدة التي تسكن السماوات ، حيث يوجد أيضاً حشد من القبائل وأجناس لا تُحصى لا يسع كلاماً أن يمثّلها* . وكيف نعرف أنّنا نجهل حتّى أسماء القسم الأعظم من القوّات؟ هو بولس يخبرنا بذلك ، عندما يقول متحدّثاً عن المسيح : «وأجلسه فوق كلّ رئاسة وسلطان وقوّة

وسيادة، وفوق كل اسم يسمّى، ليس في هذا الدهر فقط، بل في الآتي أيضاً»[1] . فأنتم ترون أنّ هنالك في العلى أسماء سوف تُعرَف في ما بعد، وهي مجهولة في الوقت الحاضر. لهذا قال: «فوق كلّ اسم يسمّى، ليس في هذا الدهر فقط، بل في الآتي أيضاً».

وما المدهش في ألّا تستطيع هذه القوّات فهم الجوهر الإلهيّ فهماً تامّاً؟ فهذا أمر لا يصعب البرهان عليه أبداً. وفي الواقع، هناك الكثير من مقاصد الله تجهله القوّات العلويّة والسلطات والسيادات والرئاسات. وبرجوعنا أيضاً إلى أقوال الرسول عينها نبيّن لكم أنّ القوّات قد اطّلعت في آن واحد معنا على بعض مقاصد الله التي كانت تجهلها قبلاً، وقد اطّلعت عليها لا في آن واحد معنا وحسب، بل بفضلنا أيضاً، يقول: «فهذا السرُّ لم يُعلن لبني البشر، في الأجيال السابقة، كما أعلنه الآن الروحُ لرسله القدّيسين وأنبيائه: أي إنَّ الأمم هم من أهل الميراث [الواحد] (مع اليهود المتنصّرين)، وأعضاءٌ في الجسد [الواحد]، وشركاء في الموعد [الواحد]، في المسيح يسوع بالإنجيل، الذي صرتُ له، أنا بولس، خادمًا...»[2] .

وكيف نعرف أنّ القوّات السماويّة كانت تطّلع على هذا في الوقت عينه؟ إنّ ما سبق قوله يقتصر على البشر، فأصغِ إذن إلى البقيّة: «لي أنا أصغرَ أصاغر القدّيسين جميعًا، قد أُعطِيَت هذه النعمة، أن أبشرّ في الأمم بغنى المسيح الذي لا يُستَقصى»[3] . ماذا تعني هذه الكلمة: «الذي لا يُستَقصى»؟ – أي الذي لا يمكن البحث عنه. ليس إذن: الذي لا يمكن العثور عليه وحسب، بل أيضاً: الذي لا يمكن حتّى اكتشاف أثر له. فليلمس أعداؤنا مجدّداً

لمس اليد كم هي كثيرة ومتواصلة السهام التي يرميهم بها بولس! لأنّ الغنى إذا كان لا يُستَقصى، فكيف إذن لا يكون كذلك من وهبه؟

«... [للجميع] ما تدبيرُ هذا السرّ، المكتوم منذ الدهور في الله الخالقِ كلّ شيء، لكي تتجلّى الآن، للرئاسات والسلاطين في السماوات، بواسطة الكنيسة، حكمةُ الله بوجوهها العديدة»[٤]. هل تسمع هذا؟ الآن فقط، وليس قبلاً، وقد عرفت هذه القوّات ذلك. إنّ الملك لا يُسِرّ لخيّاله بالمشاريع التي يخطّط لها. «لكي تتجلّى الآن، للرئاسات والسلاطين في السماوات، بواسطة الكنيسة، حكمة الله بوجوهها العديدة». فانظر أيّ تكريم تُكَرّم به الطبيعة البشريّة: إنّه معنا وبواسطتنا تطّلع القوّات العلويّة على أسرار الملك.

بيد أنّنا كيف نعرف أنّ المقصودة هنا هي حقّاً القوّات السماويّة؟ ذلك لأنّ في وسع بولس أن يدعو أيضاً الشياطين رئاسات وسلاطين، إذ يقول: «إن مصارعتنا ليست ضدّ اللحم والدم، بل ضدّ الرئاسات، ضدّ السلاطين، ضدّ ولاةِ عالم الظلمة هذا، ضدّ أرواح الشرّ المنبثّة في الفضاء»[٥]. فهل يبغي أن يقول إذن إنّ الشياطين هي التي اطّلعت على هذا السرّ؟ بالطبع لا، فهو إنّما يتكلّم عن القوّات العلويّة، لأنه بعد أن قال: «الرئاسات والسلاطين» أضاف: «في السماوات». فهذه الرئاسات والسلاطين هي إذن رئاسات السماء وسلاطينها في حين أنّ الأخرى تمكث أسفل. ولهذا، يصنّف بين هذه الأخيرة «وُلاةِ العالم»، مريداً البرهان على أنّ السماء بعيدة عن مناالهم، وأنّهم لا يظهرون عن مقدرتهم إلا في هذا العالم الحاضر.

«إنّ الله لم يـَرَه أحد قطّ»

هل رأيت كيف أنّ القوّات العلويّة وقفت معنا وبواسطتنا على حقيقة هذا الأمر؟ ولكن، لنستخدم ألفاظنا في العمل على إنهاء سرّ ديننا، مبيّنين أن لا الرئاسات ولا السلاطين تعرف جوهر الله. ومن يؤكّد لنا ذلك؟ لا بولس ولا أشعيا ولا حزقيال، بل إناء آخر للقداسة، ابن الرعد نفسه، يوحنّا حبيب المسيح، الذي انحنى على صدر الربّ فاستقى ثمّة من الينابيع الإلهيّة. ماذا يقول إذن؟ «إنّ الله لم يـَرَه أحد قطّ»[٦]. إنّه حقيقةُ ابن الرعد، لأنّه قد أسمع بذلك كلمة أكثر دويًّا من صوت البوق، وخليقة بأن تخزي مناوئينا.

ومع ذلك، فلنتفحّص الاعتراضات الممكنة. قل لي، ماذا تعني بهذا يا يوحنّا؟ «إنّ الله لم يـَرَه أحد قطّ». فماذا نفعل بالأنبياء الذين يُثبتون أنّهم قد رأوا الله؟ يقول أشعيا: «رأيت السيّد جالساً على عرش عالٍ رفيع»[٧]. ودانيال: «وبينا كنتُ أرى، إذ نُصبَتْ عروشٌ فجلس القديمُ الأيام»[٨]. ونبيّ آخر أيضاً: «رأيت السيّد واقفاً على مذبح التقدمة، فقال لي: إضرب الغفارة»[٩]. وإنّه ليسهل أن نجمع شهادات أخرى جمّة من هذا القبيل. فكيف يسع يوحنّا أن يقول: «إنّ الله لم يـَرَه أحد قطّ»؟ إعلم أنّه يتكلّم عن إدراك تامّ لله ومعرفة ناصعة له. فأن تكون جميع هذه الرؤى قد قصرها تنازل الله على الضعف البشريّ، وألّا يكون أيّ من الأنبياء قد رأى جوهره كما هو في حدّ ذاته، فإنّما ينجم هذا عن أنّ كلّ واحد منهم قد رأى شيئاً آخر غير الباقين. فالله، في الواقع، بسيط لا تركيب فيه ولا صورة له؛ وقد شاهد هؤلاء الأنبياء كلّهم صوراً مختلفة.

على كلّ، فهو يبيّن ذلك خير بيان بفم نبيّ آخر، فيقنعهم أنهم لم يروا جوهره الخاصّ، عندما يقول: «أكثرتُ من الرؤى وعلى ألسنة الأنبياء مثّلتُ الأمثال»(١٠). وهذا يعني: لم أُبْدِ لهم جوهري ذاته، ولكنّي تلاءمت بتنازل مع ضعف نظراتهم. فيوحنّا لم يقصد بكلامه البشر فقط، إذ قال: «إنّ الله لم يَرَه أحد قطّ»، كما ينتج ذلك في آن واحد معاً من ألفاظ النبيّ التي ذكرتُها لتوّي: «أكثرتُ من الرؤى وعلى ألسنة الأنبياء مثّلتُ الأمثال»، ومن إعلان وُجِّه إلى موسى. فبما أنّ هذا كان يتشوّق إلى رؤية الله بأمّ عينيه، قال له الله: «أما وجهي فلا تستطيع أن تراه لأنه لا يراني إنسان ويعيش»(١١).

ثمّة إذن نقطة أكيدة وثابتة؛ فيوحنّا لم يقل: «إنّ الله لم يَرَه أحد قطّ»، قاصدًا جنسنا البشريّ وحسب، بل القوّات العلويّة أيضاً. لهذا فهو يبيّن أنّ الابن الوحيد هو الذي لقّننا هذه الحقيقة، لكيلا يقول أحد: كيف نعرف ذلك؟ وهو يضيف فعلاً: «الابنُ الوحيد، الذي في حضن الآب هو نفسه قد أخبر»(١٢)؛ فهو يقدّم لنا إذن عن هذه الحقيقة شاهداً وسيّداً أهل ثقة. ولو كان قد أراد أن يُسمعنا الشيء نفسه الذي أسمعه موسى، لباتت نافلةً إضافته أنّ الوحيد قد أخبرنا، لأنّ الوحيد لن يكون وقتئذ «هو نفسه الذي قد أخبر»، ولكن – قبل أن يقول يوحنا ذلك وكأنه تلقّنه من الابن الوحيد – يكون النبيّ قد عبّر عنه بإيحاءٍ من الله. وبمَا أنّه كان ينوي أن يأتينا بوحي أوسع من السابق، ألا وهو أنّ القوّات العلويّة نفسها لا تستطيع رؤية الله، أضاف أنّ هذه الحقيقة قد علّمها الابن الوحيد.

إفهم أنّ الرؤية هنا هي معرفة. لأنّ القوّات العادمة الأجساد ليس لها حدقات وعيون وأجفان؛ وما هو رؤية لدينا يكون معرفة لديها. كذلك عندما تسمع أنّ «الله لم يَرَه أحد قطّ»، تصوّر نفسك تسمع أنّ الله لم يعرفه أحد في جوهره معرفة دقيقة للغاية. وحينما تسمع أنّ السيرافيم يكفّون أبصارهم ويغطّون وجههم كما بسور، وأنّ الشيروبيم يفعلون كذلك أيضاً، فلا تعتقدنَّ أنّ لهم عيوناً وحدقات، إذ هذا خاصة الكائنات البشريّة. وافهم أنّ النبيّ كان يشير بذلك إلى ملكة الإدراك عندهم. فعندما يقول النبيّ إذن إنّهم لا يستطيعون رؤية الله حتّى عندما يلطّف من سنائه بتنازل منه، لا يريد أن يقول شيئاً آخر سوى أنّهم يعجزون عن تحمّل المعرفة الواضحة والتامّة التي ستمنحهم إدراكه، وأنّهم لا يجرؤون على التحديق بجوهره كما هو في كماله وصفائه، حتّى عندما يلجأ الله إلى التنازل. إنّ «التحديق» يوازي المعرفة هنا.

بيد أنّ الابن الوحيد يعرف الآب

لذا، يقدّم لنا الإنجيليّ كمصدر لهذه الحقيقة ذاك نفسه الجالس عن يمين الله، والذي لديه معرفة تامّة بكلّ هذا، عالماً أنّ الطبيعة البشريّة غير قادرة على معرفة مماثلة، وأنّ الله لا يمكن أن تستوعبه القوّات العلويّة. وهو لا يقول «الابن» وحسب، مع أنّ هذا الاسم وحده كان يمكن أن يكفي لِلَجْم فم الوقحين. فكما أنّ المرء يسعه أن يتكلّم عن مسحاء كثيرين، وأنّه لا يوجد مع ذلك سوى مسيحٍ واحد، أو عن أرباب كثيرين وأنّه لا يوجد إلّا ربّ واحد، وعن آلهة كثيرين إلّا أنّ الله واحد؛ هكذا يمكن المرء أن يتكلّم عن أبناء

كثيرين ، ولكنّ الابن واحد. فإنّ إضافة «ال» التعريف كافية لتشير إلى تسامي الوحيد. ورغم ذلك ، فهو لم يقنع بذلك ؛ ولكنّه بعد أن قال : «إنّ الله لم يَـرَه أحد قطّ» ، أضاف : «الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو نفسه قد أخبر». وقال أوّلاً «الوحيد» ، ثمّ «الابن» *. وفي الحقيقة ، فكما أنّ العديدين ينتقصون من مجده لأنّ هذا الاسم كثير الشيوع ، ويعتبرونه ابناً بين آخرين كثيرين – إذ إنّ هذا الاسم «ابناً» مشترك لدى الجميع – فقد جعل أوّلاً ما يعبّر عن تساميه وما هو خاصّ به ولا يليق بأحد آخر ، ألا وهو هذا اللقب «الوحيد» ، لكي تفهم بذلك أنّ هذا الاسم المشترك ليس هو كذلك في الواقع ، بل أنّه خاصّ به وموقوف عليه ، ولا يليق بأحد آخر كما يليق به.

سأعمل على تأمين شروحات أوفر بغية توضيح ما أريد قوله. إنّ هذا الاسم «ابناً» يُطلَق على البشريّين كما يُطلَق على المسيح. ولكن ، بينما هو موقوف عليه بشكل خاصّ ، فإنّه لا ينطبق علينا إلّا استعارة. أمّا في ما يخصّ لقب «الوحيد» فهو ليس إلّا له ، ولا يُعطى حتّى استعارةً لأيّ شخص آخر. وقد تكلّم يوحنّا أوّلاً عن الوحيد ثمّ عن الابن ، كي يُفهمنا هذا الاسمُ الذي لا يُطلَق إلّا عليه وحده ، باستثناء كلٍّ غيره ، أنّ التسمية الأخرى هي أيضاً موقوفة عليه بشكل خاصّ ، رغم أنّها تُنسَب إلى كثيرين من الأشخاص. ويتابع قائلاً : إن كان هذا غير كافٍ لديك ، فإنّني سأضيف إشارة ثالثة صعبة وبشريّة دون شكّ ، لكنّها جديرة بإعطاء العقول الأكثر ماديّة فكرة عن مجد الوحيد. فما هي هذه الإشارة؟ «الذي في حضن الآب» ؛ إنّ اللفظ صعب ، ولكنّه جدير بأن يلقي الضوء على النبوّة الإلهيّة لو

أخذناه في معنىً خليق بالله. فكما أنّك إذا سمعت حديثاً عن عرش وكرسيّ موضوع إلى يمين العرش تدرك أنّه لا يُقصَد بذلك عرش ماديّ موضوع في نقطة محدّدة من الفضاء، بل إنّ هاتين اللفظتين: عرشاً وكرسيًّا مشتركاً، تعبّران عن التشابه والتساوي في المجد؛ كذلك إذا سمعت حديثاً عن الحضن فلا يأخذنّك الظنّ بأنّ المقصود حضن جسديّ يوجد في مكان ما؛ بل افهم أنّ كلمة الحضن هذه تعبّر عن قرب الابن وثقته إلى الذي ولده. وفي الواقع، من هاتين الصورتين: تلك التي تُظهر لنا الابن جالساً عن يمين الآب، وتلك التي تظهره لنا مستقِرّاً في حضنه، الثانية هي التي تجعلنا نرى وتمثّل لنا خير تمثيل قربه بالنسبة إلى الذي ولَدَه. لأنّ الآب ما كان ليرضى بقيام الابن في حضنه، لو لم يكن هذا من الجوهر نفسه. كذلك الابن، لو كان ذا طبيعة دُنيا لما وسعه أن يستقرّ في حضن الآب.

إذن، فمن حيث هو ابن ووحيد وساكن في حضن الآب، فإنّه يعرف تمام المعرفة جميع أسرار أبيه. وهكذا، فقد لجأ الإنجيليّ إلى هذه العبارات لكي تكوّن لنفسك صورة عن المعرفة التامّة التي للابن عن الآب. وفي الحقيقة، إنّما الحديثُ عن المعرفة. فلو لم يكن الأمر كذلك، لماذا يُتحدَّث عن الحضن؟ إذا لم يكن الله جسداً — وفي الواقع ليس هو إيّاه — وإذا لم يكن المقصود التعبير عن البنوّة وقرب الابن بالنسبة إلى الذي ولده، فإنّ هذه الكلمة تكون قد نُطِق بها جزافاً واتّفاقاً، إذ هي دون أيّة منفعة لنا. ولكنّها لم يُنطَق بها جزافاً، لا سمح الله بذلك! لأنّ الروح لا يتلفّظ بشيء اتّفاقاً؛ فهي إذن تعبّر عن قرب الابن بالنسبة إلى الآب. إنّ الإنجيليّ إذ أعلن هذا التصريح الخطير وهو أنّ القوّات العلويّة نفسها لا ترى الله، أي إنّها لا تعرفه

معرفة دقيقة، وإذ أراد أن يمدّنا بضمانة أكيدة عن هذه الحقيقة، فقد أفصح بهذه الطريقة عن رأيه لكي تثق في كلّ شيء بكلامه ثقتك بكلام الابن الوحيد الذي في حضن الآب، فلا يكون لديك في ما بعد أيّ شكّ. وإنّني لأزعم أنّ هذا النصّ يمكن أن يكفي لإقامة البرهان على أزليّة الابن، لو أُريدَ حقّاً العدول عن المناقضة والمعارضة السفيهة. وفي الواقع، فكما أنّنا نستدلّ من هذه الكلمة المقولة لموسى: «أنا هو الكائن»[١٣]، على أزليّة الله، كذلك يمكن أن يُستدلّ من هذه العبارة: «الذي في حضن الآب»، على أنّ الابن في حضن الآب منذ الأزل.

فأن يكون جوهر الله ممتنع المعرفة على كلّ خليقة، هذا ما يبرهن عليه كلّ ما قلناه لتوّنا. ولا يبقى إلّا أن نبرهن أنّ الابن والروح وحدهما يعرفان الله معرفة كاملة*. بيد أنّنا سنؤجّل هذه النقطة لحديث آخر، كيلا نرهق ذاكرتكم تحت وفرة المواضيع المعالَجة، ونكرّس الآن حديثنا للتحريض المعتاد.

تحريض على الصلاة
الممسوسون في الكنيسة

علامَ نحرّضكم إذن عادة؟ على الانقطاع إلى الصلاة انقطاعاً مثابراً، بروح قنوع ونفس ساهرة. لقد خاطبتكم منذ فترة وجيزة بخصوص هذا الموضوع، وتيقّنت أنّكم امتثلتم لرغائبي باندفاع كلّيّ. فمن غير المنطقيّ ألّا أمتدحكم عندما تقوّمون مسلككم، بعدما أكون قد أنّبتكم عندما تراخيتم. لذا، أنوي اليوم امتداحكم والتعبير لكم عن امتناني لطاعتكم. وإنّي أشهد لكم بتقديري بأن أعلّمكم لأيّ

سبب تقام هذه الصلاة قبل الصلوات الأخرى، ولماذا يأمر الشمّاس في هذه اللحظة بإدخال الممسوسين والأشخاص المصابين بهذيان مؤذٍ، وبالطلب إليهم أن يحنوا رؤوسهم. ذلك لأنّ سطوة الشياطين قيدٌ مؤذ لا يطاق، قيدٌ أصلبُ من الحديد الأكثر متانة. فكما أنه، لحظة يظهر القاضي أمام الجمهور ويذهب ليجلس على مقعده المرتفع، يفرغ الحرّاسُ السجنَ من جميع الذين يقيمون فيه، ويحضرونهم أمام الشبابيك الحديديّة وسُجُف القضاء، قذرين، مشعَّثي الشعور، تغطّيهم أسمال بالية، كذلك وضع آباؤنا أنّه في اللحظة التي يوشك فيها أن يأتي المسيح ليجلس، نوعًا ما، على مقعد مرتفع ويتجلّى في أسراره نفسها، يجب أن يُدخَل الممسوسون وكأنّهم سجناء، لا ليؤدّوا حساباً عن أخطائهم كأولئك الأسرى، أو لينالوا عقابهم وقصاصهم، وإنّما لكي يرفع الشعب كلّه - بل المدينة كلّها المجتمعة في هذا الصرح - ابتهالات متّفقة من أجلهم، مناشدين كلّهم معاً بقلب واحد سيّد الجميع في ما يخصّهم، وملتمسين رحمته بهتافات عظيمة.

لقد كنّا نلقي اللوم على أولئك الذين يعرضون عن هذه الصلاة ويتواجدون خارجاً في مثل هذه اللحظة. والآن، فالذين أريد أن ألومهم هم الذين يبقون في الداخل، لا لأنّهم يبقون هناك بكلّ تأكيد، وإنّما لأنهم لا يتصرّفون ببقائهم تصرّفاً أفضل من الذين يخرجون، ولا سيّمَا عندما يتجاذبون أطراف الحديث في لحظة رهيبة كهذه.

ماذا تفعل أنت أيّها الإنسان؟ إنّك ترى حشد الأسرى هذا منتصباً بالقرب منك؛ إنّهم إخوتك، وأنت في لغو عن أمور لا

تعنيهم ! أليس هذا المشهد إذن قادراً وحده على إثارتك وإيقاظ شفقتك؟ أخوك في الأغلال، وأنت في عدم الاكتراث؟ قل لي، كيف يمكنك أن تنال صفحاً إن كنت تبدو خلواً من العطف حتّى هذا الحدّ، وعديم الرحمة وقاسياً؟ ألا تخشى أن يفلت شيطان من إحدى تلك النفوس بينما أنت تثرثر وتستسلم لعدم الاكتراث والإهمال، فيأتي إلى نفسك إذ يجدها خاوية خالية، ويقيم فيها بكلّ سهولة كما في منزل لا باب له؟

أما كان أحرى في هذه اللحظة أن يطلق جميع الحاضرين معاً العنان لعبراتهم، وأن تُرى عيون الجميع مغرورقة بالدموع، وأن ترتفع تحسّرات وأنّات من الحفل بأسره؟ فبعد الاشتراك في الأسرار، وبعد فعل الغسل العماديّ والانضمام إلى المسيح، انتزع الذئب هذه النعاج من الحظيرة، وهو يحتجزها لديه. أمّا أنت، أفلا تسكب دمعة لدى مشاهدة هذه الكارثة؟ كيف يمكن تبرير هذا الموقف؟ هل ترفض الرأفة بمصيبة أخيك؟ ارتجف إذن أقلّه لأجل نفسك، واستفق لما هو لمنفعتك الخاصّة. وإذا رأيت بيت جارك ملتهباً، قل لي ألا تخفّ لإخماد النار حتّى لو كان جارك ألدّ أعدائك، مخافة أن يبلغ الحريق في استعاره باب منزلك أنت؟ فكّر التفكير نفسه بالنسبة إلى الممسوسين، لأنّ استيلاء الشياطين هو حقّاً حريق والتهاب. إحذر ألّا يستولي إبليس على نفسك في تقدّمه؛ وما إن تتيقّن من حضوره، إلجأ بأسرع وقت إلى الربّ، حتّى إذا ما رأى الشيطان نفسك ورعة يقظة يقرّر أنّ روحك ستكون دائماً صعبة المنال. أمّا إذا رآك غير مكترث وفاغر الفم، عمل سريعاً على الدخول دخوله في مرقد مهجور. أمّا إذا رآك متنبّهاً ويقظاً، ومتّصلاً اتّصالاً مباشراً

بالسماء، فلن يجرؤ حتّى على النظر إليك مواجهةً. وهكذا، إن كنت تسخر من إخوتك فاعتنِ على الأقلّ بذاتك، وأغلق مدخل نفسك دون روح الشرير.

ولكن، ليس ثمّة عادةً من سور أفضل من الصلاة والابتهال المتواصلين، دحراً لهجومه ضدّنا. وفي الواقع، إنّ هذا التحريض الذي يوجّهه الشمّاس للجميع قائلاً: «لننتصب ونقف حسناً» لم يوضع اتّفاقاً وبلا سبب، وإنّما لكي نقوّم أفكارنا التي تجرجر على الحضيض، فنستطيع المثول بأنفسنا مستقيمة أمام الله، طاردين الفتور الناشىء عن مشاغل الحياة اليوميّة. ولكي نرى أنّ هذا صحيح وأنّ هذه الكلمات لا تختصّ بالجسم بل بالنفس فتدعونا إلى تقويمها، لنصغ إلى الطريقة التي يستعمل فيها بولس التعبير عينه. يقول كاتباً إلى أناس خائري القوى، جعلهم انقضاض المصائب عليهم يفقدون الشجاعة: «فأنهضوا إذن أيديكم المسترخية وركبكم الواهنة»[١٤]. هل نقول إنّه يتكلّم بذلك عن أيدي الجسم وركبه؟ كلاّ، لأنّه لا يخاطب عدّائين أو مصارعين. فما يبغيه هو أن يذكي بهذه الكلمات القوّة الداخليّة لنفوس قد أضعفتها المحن.

تأمّل بجانب من تقف وبصحبة من سوف تدعو الله: بصحبة الشيروبيم! تأمّل في هؤلاء الذين يشكّلون وإيّاك هذه الجوقة، فإنّه يكفي لدعوتك إلى السهر تذكيرك بأنّك أنت الذي ترتدي جسماً وترتبط بلحم قد أُوتيتَ أن تكون جديراً بالإشادة، مع القوّات العادمة الأجساد، بالربّ الواحد للجميع. فلا يشتركنّ إذن أحد بهذه الأناشيد القدسيّة والسرّيّة بورع فاتر. ولا يُبقينَّ أحد في تلك اللحظة على أفكاره ملتفتة إلى الحياة الماديّة. بل لينشد هكذا كلّ

واحد النشيد الكلّيّ القداسة لإله المجد والعظمة ، نافياً عن عقله كلّ فكرة أرضيّة ومنتقلاً بجملته إلى السماء ، وكأنّه فيها يطير برفقة السيرافيم إلى جانب عرش المجد ! *

لهذا السبب نحرَّض على الوقوف حسناً في تلك اللحظة. فالوقوف حسناً ليس شيئاً آخر غير الوقوف كما يليق بالإنسان في حضرة الله ، بمخافة ورعدة ونفس ساهرة ومنتبهة. وأن يختصّ التعبير بالنفس فهذا ما يبيّنه أيضاً هذا التحريض الآخر لبولس عندما يقول : «أثبتوا على هذا في الربّ ، أيّها الأحبّاء» (١٥) . فكما أنّ رامي السهام عندما يريد أن يصيب الهدف بنباله يولي عنايته أوّلاً وضعيّته الخاصّة ، ولا يباشر بقذف سهامه إلّا بعد أن يكون ارتكز بدقّة في مواجهة مرماه ، كذلك أنت إذا ما أردت أن تبلغ بنبالك رأس الشيطان الرجس ، فأولِ عنايتك قبل كلّ شيء تنسيق أفكارك ريثما يمكنك أن تصوّب سهامك مباشرة ضدّ عدوّك ، بعد أن تكون قد وفّرت لنفسك وقفة حازمة ومريحة.

اللصوص في الكنيسة

هذا ما يختصّ بالصلاة. ولكن ما دام الشيطان قد اختلق أيضاً ، علاوة على الاهمال في الصلوات ، وسيلة أخرى للهجوم مقلقة أيّما إقلاق ، توجّب علينا أيضاً قطع الطريق أمامه من هذه الناحية. فما حاك ، يا تُرى ، هذا الروح الفاسد؟

إنّه إذ رآكم هكذا متّحدين كما في جسم واحد ، ومثابرين على كلماتنا بانتباه فائق ، لم يجرؤ أن يرسل إليكم بعضاً من خدّامه المكلّفين أن يحيدوكم عن الإصغاء بنصائحهم وتحريضاتهم ، لأنّه كان

يعرف أن لا أحد منكم يتقبّل مثل هذه النصائح. لكنّه دسّ في جماعتكم لصوصاً وسارقي أكياس اختلسوا من أشخاص عديدين، أكثر من مرّة، في أثناء الاجتماع هنا، الذهبَ الذي كانوا يحملونه. أجل، لقد حصل هذا هنا لأشخاص عديدين أكثر من مرّة. فلئلاّ يتكرّر ذلك من بعد، ولئلاّ يُخمد فقدانُ المال هذا مع الوقت حميّتكم في الإصغاء إلينا، إذا وقع عدد كبير بينكم ضحيّة له، ألزمكم وأحرّضكم جميعاً ألّا تحملوا معكم ذهباً عندما تدخلون إلى ههنا، لكيلا يصبح حماسكم في الإصغاء فرصة إساءة لهؤلاء، ولكيلا يتلاشى، بفقدان ما لكم، الفرح الذي تحصلون عليه من اجتماعاتكم في هذا المكان.

وفي الواقع، إنّ ابليس قد حاك هذا لا من أجل إفقاركم، بل من أجل أن تضعف هذه الخسارة الماليّة حماسكم كمستمعين، بمَا تسبّبه لكم من تنغيص مكدّر. وهكذا، فقد جرّد أيّوب من ثرواته جميعها لا من أجل إفقاره، وإنّما من أجل تجريده من تقواه. لأنّ الهدف الذي يسعى اليه ليس هو الحرمان من ثروات – فهو يعرف أنّ هذا لا يساوي شيئاً – وإنّما هو إسقاط النفس في الخطيئة، بحرمانها من الخيرات. وإذا لم يفضِ إلى هذا سيظنّ أنّه لم يبلغ مراميه.

فأنت إذن، أيّها الأخ الحبيب، إذ قد عرفت نيّة الشيطان، فعندما يحرمك من ذهبك، سواء بواسطة اللصوص أم بأيّة وسيلة أخرى، مجّد الربّ. إنّ هذا السلوك سيعود عليك بالنفع الكبير، ما دمت ستضرب هكذا عدوّك ضرباً مزدوجاً: فمن جهة برفضك الاغتياظ، ومن جهة ثانية برفعك صلاة شكر. وإن تثبّتّ من أنّ هذه الخسارة الماليّة تؤثّر فيك وتقودك إلى الاغتياظ على الربّ، فلن

يوقف أبداً عمليّاته ضدّك. ولكن، لو تنبّه أنّك ترفع صلاة شكر إلى الله الذي خلقك بدل أن تجدّف عليه، كلَّ مرّة تلمّ بكَ المصائب، فإنه سيتوقّف عن ضربكَ بالمحن، إذ يرى أن تجربة الشدّة، بمَا تدفعك إليه من آي الشكران، تكفل لك أمجدَ الأكاليل، ومكافآت أوفر. وهذا بالفعل ما حصل لأيوب: فعندما رآه يرفع صلوات الحمد، بعد أن سلبه ثرواته وضربه في جسده، لم يجرؤ على متابعة هجوماته فابتعد مصاباً بهزيمة نكراء لا تعوّض، وقد أعلى فقط من سناء بطل الله.

فلا نخافنّ إذن وقد علمنا هذا إلّا أمراً واحداً: الخطيئة. ولنتجشّمنّ بشجاعة الباقي كلّه: فقدان المال، والمرض، والظروف العسيرة، والظلم، والافتراء، أو أيّ أمر آخر مكروه يمكن أن يحصل لنا، لأنّ جميع هذه المضايقات – من طبيعتها – ليس أنّها لن تؤذينا وحسب، بل يمكنها أيضاً أن تكون لنا في غاية المنفعة لو نحن قاسيناها بشكر، إذ تستحقّ لنا هكذا مكافآت أعظم. وتعلم أنّ أيّوب، بعد أن كان قد وضع على رأسه أكاليل الصبر والشجاعة كلّها، استعاد ضعف ما كان قد فقده. وأنت لن تستعيد فقط ضعف خساراتك أو ثلاثة أضعافها، وإنّما مئة ضعف إن تحمّلتها بسخاء، وستنال كميرات الحياة الأبديّة. لعلّنا جميعًا نحصل عليها، بنعمة ربّنا يسوع المسيح وصلاحه الذي له المجد والقدرة، الآن وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين. آمين.

الحواشي

(*) لا نجد في سفر دانيال، كما وصل إلينا، أيّ أثرٍ لهذا الحدث الذي يأتي الذهبيّ الفم على ذكره هنا.

(*) راجع العظة الثالثة، ص ١٠١.

(*) راجع رؤيا ٧ : ٩

(١) أف ١ : ٢١

(٢) أف ٣ : ٥ – ٧

(٣) المرجع نفسه ٨

(٤) المرجع نفسه، ٩ – ١٠

(٥) أف ٦ : ١٢

(٦) يو ١ : ١٨

(٧) أش ٦ : ١

(٨) دا ٧ : ٩

(٩) عا ٩ : ١

(١٠) هو ١٢ : ١٠

(١١) خر ٣٣ : ٢٠

(١٢) يو ١ : ١٨

(١٣) خر ٣ : ١٤

(*) يشير الذهبيّ الفم بذلك إلى الترتيب اليوناني حيث تأتي الصفة قبل الموصوف: «الوحيد الابن».

(*) بهذا يشير الذهبيّ الفم إلى موضوع العظة الخامسة والأخيرة، ويهيّىء المستمعين إليها.

(١٤) عبر ١٢ : ١٢

(١٥) في ٤ : ١

(*) هذا المقطع من العظة الرابعة يشكّل وثيقة هامة جدًّا لتاريخ الليتورجيّا. ونهايته تشير بوضوح إلى نشيد الملائكة «قدّوس، قدّوس، قدّوس...» في صلاة الشكر. وقد أخذته الكنيسة عن أشعيا ٦، لتدعو كنيسة الأرض إلى مشاركة السيرافيم نشيدهم السماويّ. وبهذا يشهد القدّيس يوحنا الذهبيّ الفم لوجود تقليد ليتورجيّ قديم جدًّا ذكره أيضاً القديسان غريغوريوس النيصيّ وكيرلس الأورشليمي.

وما يلفت النظر، هو أول هذا المقطع الذي يذكّر بالنشيد الشيروبيميّ (أو الشيروفيكون) حيث يمثّل المؤمنون المشاركون في الذبيحة جوق الشيروبيم، والذي يدعوهم إلى التخلّي عن الأفكار الدنيويّة: «أيها الممثلون الشيروبيم سرّيًّا، والمرنمون

للثالوث المحيي بالنشيد المثلث التقديس ، فلنطرح عنا كل اهتمام دنيويّ...».

يعيد المؤرخون الشيروفيكون عادةً إلى عهد الإمبراطور يوستينوس الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨) ، ويذكرون أن ليتورجيا القديس يعقوب اليونانيّة ، عرفت في نصّها القديم «نشيدًا شيروبيميًّا» سقط في ما بعد من الليتورجيّا السريانيّة. أفلا يمكن بذلك أن نعيد الشيروفيكون إلى ما قبل القرن السادس. فيكون حينئذٍ أن الذهبيّ الفم قد جمع في عظته ذكرًا لنشيد نقل القرابين - تردّده الليتورجيا السريانية أيضاً ، وبأشكال مختلفة - والنشيد الثلاثيّ. وقد كانا متقاربين في وقت لم يعرف بعدُ «الدورة الكبرى» ولا الطلبات التابعة لها ولا إعلان «قانون الإيمَان» الذي لم يدرج هنا إلّا في أواخر القرن الخامس.

ويمكن أيضاً أن يكون هذا المقطع من عظة يوحنا أحد الأسباب لوضع الشيروفيكون.

العِظَـةُ الخَامِسَـة

[للقديس نفسه. في أن الله لا يمكن إدراكه].

تلخيص

عندما يُباشَر الخوض في موضوع هامّ[1] يتطلّب خطابات عدّة، ويقتضي أكثر من يوم بل يومين وثلاثة ريثما يُستنفَد، من الضروريّ في رأيي ألّا يُفرَض دفعة واحدة على عقل المستمعين ما يُراد تعليمهم إيّاه. وبالعكس، فمن اللائق تقسيم الكلّ إلى أجزاء عديدة، وتخفيف ثقل الخطاب المقطّع هكذا وتيسير حمله.

والحقيقة أنّ اللسان والسمع وكلّ حسّ من أحاسيسنا له قياس وقاعدة وحدود معيّنة؛ وكلّ من يدّعي تجاوز هذه الحدود يرهق المَلكات التي في حوزته. قل لي، ما أنعم من النور؟ وما ألطفُ من شعاع الشمس؟ ومع ذلك، فإنّ تلك النعومة وذلك اللطف يغدوان إزعاجاً وألماً عندما تتعرّض لها عيونكم بما يفوق القياس. كذلك، فقد وضع الله أن يعقب النهار الليل، الذي يُعنى بعيوننا التعبة مرخياً أجفاننا ومريحاً أحداقنا ومهدّئاً تعب ملكتنا الرؤيويّة، بحيث يجعلها أكثر أهليّة لتأمّل النهار التالي. لهذا السبب، فإنّ اليقظة والنوم مع أنّهما متضادّان في ما بينهما، إلّا أنّهما كليهما لطيفان بتناغم تعاقبهما. وإذا كنّا نقول إنّ النور عذب، فإنّنا نقول الشيء نفسه عن النوم الذي ينتزعنا رغم ذلك من النور.

فعدم مراعاة القياس هو دائماً شاقّ وباهظ، كما أنّ الحدّ الوسط عذب لنا ونافع ومفيد. كذلك نحن، فرغم كوننا قد بدأنا منذ أربعة أيّام أو خمسة خطابنا عن اللامدرَك، فلا نتهيّأنّ بعد لإتمامه اليوم. إنّا لا نبغي سوى أن نهدي محبّتكم حدّاً من الكلمات وسطاً، عازمين بعد ذلك على ترك ذهنكم يستريح ثانية.

في أيّة نقطة إذن أعرضنا عن خطابنا في المرّة السابقة؟ لأنّ استعادته في هذه النقطة أمر ضروريّ، إذا أردنا أن يؤلّف تعليمنا الكتاب المقدّس كلاًّ متكاملاً. كنّا نذكّر بهذه الكلمة لابن الرعد: «إنّ الله لم يَرَه أحد قطّ؛ الإلهُ، الابنُ الوحيد الذي في حضن الآب، هو نفسه قد أخبر»(٢). واليوم يجب أن نعلم في أيّ مكان قام ابن الله الوحيد نفسه بهذا التصريح. يقول يوحنا: فأجابَ اليهودَ وقال لهم: «ليس أنّ أحدً رأى الآب إلاّ الذي هو من لدن الله؛ فهذا قد رأى الآب». إنّ فعل «رأى» مأخوذ هنا أيضاً بمعنى «عرف».

الابن والروح القدس وحدهما يعرفان الآب

فهو لم يكتفِ بأن يقول: «لا أحد يعرف الآب»، ثمّ صمت فيما بعد، إذ قد يُظنّ هكذا أنّ الحديث مقتصر على البشر. ولكنّه عندما أراد أن يبيّن أن لا الملائكة ولا رؤساء الملائكة ولا القوّات العلويّة تعرفه، أوضح هذا جيّداً بالكلمات التي تتبع. وفي الحقيقة، بعد أن قال: «ليس أنّ أحدًا رأى الآب»، أضاف: «إلاّ الذي هو من لدن الله؛ فهذا قد رأى الآب». فلو كان قد قال فقط «لا أحد»، لربّما ظنّ الكثيرون ممّن يصغون إلى كلماته أنّ هذا لم يُنطَق به إلّا في ما يتعلّق بجنسنا. لكنّه عندما يقول «لا أحد» ويضيف «الاّ

الابن »، فهو يستثني بهذه الإشارة إلى الابن الوحيد الخليقةَ كلَّها. ويقال لي: ماذا؟! أيستثني الروح القدس أيضاً؟ البتّة، ما دام هذا لا يؤلّف جزءاً من الخليقة. والحال أنّ كلمة «لا أحد» تُستعمَل دائماً نقيضاً بالنسبة إلى الخلائق وحدها. وهكذا، فعندما يكون المقصود الآب فهو لا يستثني الابن، وعندما يكون المقصود الابن فهو لا يقصي الروح.

لنستمع إلى الكلمات التي يوجّهها بولس إلى الكورنثيّين، كيما نوضح لأنفسنا – منذ الآن – أنّ هذه الكلمة «لا أحد» لم تُلفَظ من أجل استثناء الروح، بل نقيضاً فقط بالنسبة إلى الخلائق، في ما يخصّ هذا العلم الذي ينسبه الكتاب إلى الابن وحده. فما هي هذه الكلمات؟ «فمن من الناس يعرف ما في الإنسان إلّا روح الإنسان الذي فيه؟ فهكذا أيضاً، ليس أحد يعرف ما في الله إلّا روح الله» (٤). وبالتالي، فكما أنّ كلمة «ليس أحد» لا تقصي هنا الابن، كذلك عندما تُستعمَل – في ما يخصّ المسيح – لا تستثني الروح القدس. وهكذا تكون صحّة تأكيدنا قد بُرهِن عليها. لأنّه إذا كان قد أراد أن يستثني الروح بقوله: «ليس أنّ أحدًا رأى [الله] الآب، إلاّ الذي هو من لدن الله»، فإنّه من الغريب أن يسع بولس القول إنّ الروح القدس يعرف معرفة دقيقة ما في الله، كما يعرف الإنسان ما في ذاته.

وبالطريقة عينها أيضاً استُعمِلَت عبارة «واحد»، لأنّ لها القيمة نفسها والمدلول نفسه. وبالفعل، أنظر إلى هذا، نقرأ: «ليس إلّا إله واحد، الآب، الذي منه كلُّ شيء؛ وربّ واحد، يسوع المسيح، الذي به كلُّ شيء» (٥). فإذا كان القول إنّه يوجد إله واحد يستثني

الابن من الألوهة، فإنّ القول إنّه يوجد ربّ واحد، الابن، يستثني الآب من السيادة. لكنّ الآب في الواقع غير مُستَثْنَى البتّة من السيادة بهذا التأكيد «أنّه [ليس إلاّ] ربٌّ واحد، يسوع المسيح»؛ والابن بدوره إذن غير مُستَثْنَى البتّة من الألوهة بهذا التأكيد أنّه ليس إلاّ إلهٌ واحد الآب.

تسميات مختلفة لأقانيم الثالوث

إن ردّ امرؤٌ أنّ الآب وحده يُدعى إلهاً، لأنّ الابن، إن كان إلهاً أيضاً، فهو ليس كذلك على قدم المساواة مع الآب، لِنَتَج عن هذه المقدّمات – ولكنّنا نحن لا نتبنّاها! – رغبةٌ في الإقرار بأنّ الابن يُدعى ربّاً، لأنّ الآب، إن كان ربّاً أيضاً، فهو ليس كذلك على قدم المساواة مع الابن. ولكن، إذا كان هذا الزعم الأخير كفراً، فالسابق ليس له أساس أرسخ منه، فكما أنّ لفظتي «ربّ واحد» لا تستثنيان الآب من السيادة التامّة، ولا تشمل بهما الابن وحده، كذلك أيضاً عبارة «إله واحد» فهي لا تقصي الابن عن الألوهة الحقّة والصحيحة، ولا تسديها إلى الآب حصراً.

وفي الواقع، أن يكون الابن الله، وذلك على قدم المساواة مع الآب، وأنّه يبقى الابن، فهذا يعود إلى إضافة كلمة الآب. فلو كانت تسمية الله لا تتعلّق إلّا بالآب، وليس في وسعها أن تحدّد لنا أقنوماً آخر غير هذا الأقنوم الأوّل وغير المولود، الذي به وحده تليق وكأنّها اسمه الشخصيّ والخاصّ، لأصبحت إضافة كلمة الآب نافلة. فقد كان يكفي القول «الهٌ واحد»، حتّى نعرف من المقصود. ولكن، فكما أنّ تسمية الله هي، في الواقع، مشتركة بين الآب

والابن ، وأنّ بولس بقوله «إله واحد» لم يكن يحدّد عمّن يتكلّم ، فقد وجب عليه لهذا السبب أن يضيف كلمة الآب ، كما يحدّد أنّه كان يتكلّم عن الأقنوم الأوّل غير المولود ، إذ إنّ كلمة الله بمَا أنها مشتركة بينه وبين الابن لم تكن لتكفي في تعيينه.

وفي الواقع ، بين هذه الأسماء بضعة هي مشتركة وأخرى هي خاصّة. وظيفة الأولى منها إلقاء الضوء على هويّة الجوهر ، والثانية منها انفراد الأقانيم. وهكذا ، فإنّ «الآب» و «الابن» هما اسمان خاصّان لهذين الأقنومين ، بينما «الله» و «الربّ» هما اسمان مشتركان. ولمّا كان بولس قد استعمل إذن اسماً مشتركاً بقوله «الله الواحد» ، فقد وجب عليه إضافة الاسم الخاصّ لكي تعلم من المقصود ، بحيث لا نقع في ضلال سابيليوس الأرعن (٦).

ومن ناحية أخرى ، ليس للفظة الله معنى أرفع من لفظة الربّ ؛ وليس للفظة الربّ معنى أقلّ رفعة من لفظة الله ، وهاك البرهان. في العهد القديم ، يسمّى الآب باستمرار الربّ ، ونقرأ فيه : «إنّ الربّ إلهك» ، «الربّ واحد» (٧) ، ثمّ : «الربّ إلهك تتّقي ، وإيّاه تعبد وباسمه تحلف» (٨) ، ثمّ : «عظيم ربّنا وعظيمة قوّته ، وليس لحكمته قياس» (٩) ، وأيضاً : «فليعلموا أنك أنت وحدكَ اسمُكَ الربُّ ، المتعالي على جميع الأرض» (١٠) . فلو كان هذا الاسم أدنى من اسم الله ، ولو كان غير خليق بهذا الجوهر لما كان يجب أن يقال : «لِيُعلَم أنّ اسمك الربّ». كذلك ، إذا كانت لفظة «الله» أسمى وأشرف من لفظة «ربّ» ، فإنّه لا ينبغي إعطاء الابن الذي هو أدنى من الآب في اعتقاد هؤلاء الناس ، اسماً يليق بهذا الأخير ولا يحقّ أن يُنسَب إلّا إليه وحده. ولكنّ الأمر غير ذلك ، بالطبع. أجل ، فليس الابن

دون الآب ، وليس لاسم الربّ قيمة أقلّ من اسم الله. لهذا يطلق الكتاب هاتين التسميتين على الآب والابن على السواء.

لقد سمعتم أنّ الآب يسمّى ربّاً ، حسناً ! إنّنا سنبيّن لكم الآن أنّ الابن ، من جهته ، يسمّى ألله. «ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابناً يُعطى له اسم عمّانوئيل ، الذي معناه : الله معنا» (١١) . هل ترى كيف أنّ اسم الربّ يُطلَق على الآب ، واسم الله على الابن ؟ فكما نقرأ في الكتاب : «لِيُعلَم أنّ اسمك الربّ» ، نقرأ هنا أيضاً : «يعطى له اسم عمّانوئيل» . وأيضاً : «لقد ولد لنا ولد ، وأُعطي لنا ابن ، ويُدعى اسمه رسول المشورة العظيمة ، إلهاً قويّاً وجبّاراً» (١٢) . أرجو منك أن تلاحظ فهم الأنبياء وحكمتهم الروحيّة ؛ فخشية أن يُظَنّ أنّهم يتكلّمون عن الآب عندما يقولون «إلهاً» ، يشرعون في التذكير بالتجسّد (١٣) لأنّ الآب ، هو ، لم يولد من عذراء ، ولم يكن قطّ طفلاً صغيراً.

ويتحدّث عنه نبيّ آخر أيضاً هكذا : «هذا هو إلهُنا ولا يُعتبَر حذاءه آخر» (١٤) . عمّن يقول هذا ؟ أَعَن الآب ؟ كلاّ. أصغِ إليه في الواقع يذكّر بالتجسّد ؛ فبعد أن قال : «هذا هو إلهُنا ولا يُعتبَر حذاءه آخر» ، يضيف : «هو وجد طريق التأدّب بكماله ، وجعلها ليعقوب عبده ولإسرائيل حبيبه. وبعد ذلك ، تراءى على الأرض وتردّد بين البشر» (١٥) . ويقول بولس من جهته : «ومنهم (أي اليهود) المسيحُ بحسب الجسد ، الذي هو ، فوق كلّ شيء ، إلهٌ مبارك إلى الدهور ! آمين» (١٦) . وفي موضع آخر : «ليس للزاني ولا النجس ولا الطمّاع... ميراثٌ في ملكوت المسيحِ والله» (١٧) . وفي موضع آخر أيضاً ، يتحدّث عن «ظهور مخلّصنا يسوع المسيح» (١٨) .

ويعطيه يوحنّا الاسم نفسه عندما يقول: «في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة عند الله، وكان الكلمة الله»[١٩].

يقول بعضهم: حسناً، ولكن أرِنا مقطعاً يعطي فيه الكتاب الآب لقب الربّ، ذاكراً في آن معاً الآب والابن. لن أبيّن لكم هذا فقط، وإنّما سوف أبرهن لكم أيضاً أنّه يدعو الآب ربّاً والابن ربّاً، وأنّه يدعو الآب إلهاً والابن إلهاً جامعاً كلّ مرّة هاتين التسميتين في موضع واحد. فأين يوجد هذا؟ فيمَا كان السيّد المسيح يتحدّث يومًا إلى اليهود، قال لهم: «ماذا ترون في المسيح؟ ابن من هو؟». قالوا له: «ابن داود». فقال لهم: «كيف إذن يدعوه داود، بوحي الروح، ربّاً، ويقول: «قال الربّ لربّي: إجلس عن يميني...»؟[٢٠] هاكم إذن «الربّ» و«الربّ»[٢١].

وهل تريد أن تعرف أين أعطى الكتاب الآب والابن كلاًّ منهما على حدة لقب الإله، جامعاً بينهما في الذكر نفسه؟ أصغِ إذن إلى داود النبيّ والرسول بولس اللذين يُريانك ذلك: «عرشك يا الله إلى الدهر والأبد، وصولجان ملكك صولجان استقامة. أحببت البرّ وأبغضت الإثم، لذلك مسحك الله إلهك بدهن البهجة أفضل من شركائك»[٢٢]. وقد قرن بولس شهادته بهذه، عندما قال: «وإذ يقول عن ملائكته: صنع ملائكته رياحاً... [يقول] للابن: عرشك يا الله إلى أبد الأبد»[٢٣].

ويقول بعضهم: «لماذا دعا إذن، في ذلك الموضع[٢٤]، الآب إلهاً والابن ربّاً؟». إنّه لم يفعل ذلك اتّفاقاً ودون قصد، ولكن لأنّه يخاطب يونانيّين أفسَدهم تعدّدُ الآلهة. فلئلاّ يقولوا: توبّخنا على قبولنا بآلهة عديدة وأرباب كثيرين، وتسقط أنت نفسك تحت طائلة

التوبيخات أنفسها، إذ تتحدّث عن أكثر من إله. فلهذا السبب، واتّضاعاً منه لأجل ضعفهم، يدعو الابن باسم آخر له من ناحية أخرى المدلول نفسه.

لِنَعُد إلى هذا المقطع عينه كي نبيّن لكم أنّ هذا صحيح، تروا بوضوح أنّه ليس مجرّد تخمين من جهتنا: «أمّا من جهة ذبائح الأوثان فأعرف أنّ لجميعنا العلم... إنّما العلم ينفخ؛ أمّا المحبّة فتبني... فمن جهة أكل ذبائح الأوثان إذن، نحن نعلم أنّ الوثن ليس بشيء في العالم، وأنّه لا إله غير واحد»(٢٥). فأنت ترى أنّه يخاطب بكلّ إلحاح أناساً يعتقدون بوجود آلهة عديدين. «فإنّه وإن وجد، في السماء كان أم على الأرض، ما يقال له آلهة – وهو يتحامل دوماً على أعدائه أنفسهم –، ويوجد من هذا النوع آلهةٌ كثيرون وأرباب كثيرون – أي مزعومون كذلك – فنحن إنّما لنا إله واحد، الآب، الذي منه كلُّ شيء، وربٌّ واحدٌ، يسوعُ المسيح، الذي به كلُّ شيء [ونحن به]»(٢٦).

إذا كان قد استعمل هذه الكلمة «واحد» فلكي لا يشتبهوا به أنه يعيد تعدّد الآلهة. وإذا كان قد أعطى الآب اسم الله الواحد، فليس أنّه يريد إقصاء الابن عن الألوهة. وبالطريقة عينها، إذا كان قد أعطى الابن اسم الربّ الواحد فليس أيضاً أنّه ينوي تنحية الآب عن السيادة. ولكنّه كان يريد بذلك إصلاح ضعف هؤلاء الناس وعدم تمكينهم منهم بشيء. ولهذا السبب أيضاً لم يشأ الأنبياء أن يعرّفوا اليهود بابن الله، بطريقة جليّة وصريحة، وإنّما فقط بإشارات نادرة وقاتمة. فلو سمع اليهود، وهم ما كادوا يتحرّرون من ضلال تعدّد الآلهة، كلاماً عن إله وإله لكانوا سقطوا ثانية في الشرّ نفسه.

كذلك ، لم يكفَّ كتبة العهد القديم ، في كلّ سانحة ، عن ترديد «ليس إيّاي أنا الربّ ، فإنه ليس آخر ، لا إلهَ غيري» (٢٧) . فليس في نيّتهم أن ينفوا الابن – لا سمح الله ! – ولكنّهم ينوون الاعتناء بضعف معاصريهم ، وإقناعهم في الوقت نفسه بالعدول عن اعتقادهم في آلهة عديدة ولا وجود لها .

حينما تسمع إذن هذه الكلمات : «واحد» و «أقنوم» وكلمات أخرى مماثلة ، لا تقلّلنّ من مجد الثالوث ؛ بل تعلّم بفضلها البون الذي يفصل بينه وبين الخليقة . لأنّه قيل في موضع آخر : «من عرف فكر الربّ؟» (٢٨) فأن يكون هذا هنا أيضاً وألّا يُستثنى الابن ولا الروح من العلم ، هذا ما برهنّاه كفاية في ما سبق عندما استندنا على سبيل المثال ، إلى هذه الشهادة : «من يعرف ما في الإنسان إلّا روح الانسان الذي فيه ؟ ، لا أحد يعرف الله الّا روح الله» (٢٩) . وقال المسيح أيضاً : «لا أحد يعرف الابن إلّا الآب ، ولا الآب إلّا الابن» (٣٠) . والشيء نفسه في هذا الموضع الآخر : «ليس أنّ أحدًا رأى الآب إلّا الذي هو من لدن الله ؛ فهذا قد رأى الآب» (٣١) . إنّه يدلّ بذلك على الكمال الذي به يعرف الآب ، وعلى السبب الذي من أجله يعرفه ، في آن واحد معاً . فما هو هذا السبب ؟ هو أنّه من لدن الله . وبالعكس ، فأن يكون من لدن الله ، هذا ما أقام الدليل عليه كمالُ المعرفة التي له عنه . وفي الحقيقة ، إنّه يعرفه دقيق المعرفة لأنّه آتٍ منه . ومن جهة أخرى ، فهذه المعرفة الدقيقة هي علامة أنّه آتٍ منه ، إذ إنّ جوهراً ما لن يسعه معرفة جوهر أسمى معرفة جيّدة ، حتّى وإن كانت المسافة بينهما صغيرة .

إسمع إذن ما يقولَ الكاتب الإلهيّ عن الفاصل الصغير الذي

يفرق الملائكة عن الطبيعة الإنسانيّة. فبعد أن قال: «ما الإنسان حتّى تذكره، وابن الإنسان حتّى تفتقده؟» أضاف: «لقد وضعته دون الملائكة قليلاً»[٣٢]. ومع ذلك، فرغم أنّ الفاصل صغير، وحيث إنّه وجد، لا نعرف تمام المعرفة طبيعة الملائكة، ويستحيل علينا ولوجها حتّى على حساب تأمّلات طويلة.

لا يعرف الإنسان حتّى نفسه

ولكن لماذا نتكلّم عن الملائكة بينما جوهر نفسنا عينه لا نعرفه معرفة كافية، أو بالأحرى لا نعرفه البتّة؟ إن يَدَّعِ أولئك الناس معرفته فاسألهم علامَ يشتمل جوهر النفس: هل هو الهواء، أم هو نسمة، أم الريح، أم النار؟ ولكنّهم لن يحيروا أيّاً من هذه الأجوبة، بمَا أنّ هذه الأمور جسديّة فيما النفس لا جسد لها. وهكذا، لا يعرفون الملائكة ولا نفوسهم ذاتها. أمّا سيّد الكون وخالقه فإنّهم يزعمون معرفته كمال المعرفة! أيمكن تصوّر جنون أسوأ من جنونهم؟

ولمَ السؤال عن جوهر النفس؟ فكيفيّة وجودها في جسدنا أمر يستحيل حتّى معرفته. وبالفعل، ماذا يمكن القول بهذا الخصوص؟ ألعلّها منتشرة في مجمل الجسد كلّه؟ لكنّ هذا هراء، فتواجدٌ مثل هذا لا يمكن إلّا للأشياء الجسديّة. ومن ناحية أخرى، فما يُثبت أنّ الأمر غير هذا بالنسبة إلى النفس هو أنّها تبقى كاملة كلّ مرّة يُقطَع فيها للإنسان ساق، أو ساعد، ولا تُجتَزأ ببتر هذا الجسم. ولكن إذا كانت لا توجد في كامل الجسم، أتكون محتواة في أحد أجزائه؟ سيترتّب إذن حتماً على ذلك أنّ باقي الأعضاء ميْتة، ما دام ميْتاً كلّ ما

لا حياة فيه. فمن المستحيل دعم هذا الفَرْض. وهكذا، نعرف أنّ النفس موجودة في جسمنا، ولكن كيف توجد فيه فهذا ما نجهله. وإن كان الله قد منع عنا هذه المعرفة، فلكي يسكتنا ويحتوينا بسهولة أكبر، ويعلّمنا المكوث في وضعنا المتواضع، وألّا نرغب في استقصاء ما يفوقنا، والكفّ عن فضول متطفّل.

معرفة الابن للآب كاملة

ولكن لِنَعُد إلى الكتاب، كيلا نقرّر في مثل هذه الأمور بمجرّد الاستدلال المنطقيّ. فهو يقول: «ليس أنّ أحدًا رأى الآب إلاّ الذي هو من لدن الله؛ فهذا قد رأى الآب»[٣٣]. يقول قائل: «ماذا يعني ذلك؟ إنّ هذا النصّ لا يكفي بعد لإثبات أنّ الابن يمتلك معرفة كاملة. إنّه يبيّن، دون ريب، بهذه الكلمات: «ليس أنّ أحدًا رأى الآب»، أنّ الخليقة لا تعرف الله؛ ويبيّن أيضاً أنّ الابن يعرفه، إذ يضيف: «إلّا الذي هو من لدن الله؛ فهذا قد رأى الآب». ولكن، أن يعرفه معرفة كاملة بالطريقة عينها التي يعرف فيها الله ذاته، هذا ما لم يُبرهَن بعد عنه. لأنّه قد يقال: من الممكن ألّا تعرف اللهَ معرفةً دقيقة لا الخليقةُ ولا الابن، وإنّما يعرفه هذا الأخير معرفة أفضل من الخليقة دون أن يكون لديه، مع ذلك، إدراك كامل له. لأنّه يقول إنّه يرى ويعرف ما هو الآب، بيد أنّه لا يؤكّد أنّه يعرفه معرفة كاملة، بالطريقة عينها التي يعرف فيها ذاته.

هل تريدون إذن أن نثبت هذا بواسطة الكتاب وكلمات المسيح عينها؟ فلنصغِ إلى ما يقوله لليهود: «كما أنّ الآب يعرفني، كذلك أنا أعرف الآب»[٣٤]. ماذا يسعك أن تطلب أكمل من هذه المعرفة؟

استفسر من معارضك : هل يعرف الآب الابن بشكل كامل ، ألديه عنه معرفة كاملة كلّ الكمال؟ هل هو صحيح أنّه لا يجهل شيئاً ممّا يختصّ بالابن ، وأنّ معرفته من هذه الوجهة تامّة؟ – سيجيبك : أجل. – إذن ، عندما تعلم أنّ الابن يعرفه كما يعرف هو الابن ، لا تبحث عن المزيد إذ إنّ المعرفة متساوية بدقّة كليّة من الجهتين.

وفي موضع آخر ، يبيّن المسيح هذا أيضاً عندما يقول : «ما من أحد يعرف الابن إلّا الآب ، ولا الآب إلّا الابن ومن يريد الابن أن يكشف له» (٣٥) . وهو يكشف لا عن كلّ ما يعرفه ، وإنّما عمّا نحن قادرون على تقبّله فقط . لأنّه إن كان بولس يفعل كذلك ، فكم بالأحرى ينبغي على المسيح أن يتصرّف تصرّفاً مماثلاً . والحال أنّ الرسول يقول لتلاميذه : «وأنا لم أستطع أن أكلّمكم كروحيّين ، بل كجسديّين ، كأطفال في المسيح . لقد غذوتكم باللبن لا بالطعام ، لأنكم لم تكونوا بعد قادرين على ذلك» (٣٦) .

يقول قائل : ولكنّه لم يخاطب بهذا الكلام إلّا الكورنثيّين . فما عسى أن يكون الجواب به إذا بيّنا أنّه كان يعرف أموراً لم يعرفها أيّ إنسان آخر ، وأنّه عندما بارح هذه الحياة ، كان الوحيد في العالم الذي يعرفها؟ أين نجد البرهان على ما أؤكّد هنا؟ في الرسالة إلى الكورنثيّين حيث يقول : «سمعت كلماتٍ تفوق الوصف ، لا يحلّ لإنسان أن ينطق بها» (٣٧) . ومع ذلك ، فبولس هذا نفسه الذي سمع كلمات تفوق الوصف ولا يحلّ لإنسان أن ينطق بها ، لا يملك سوى معرفة ناقصة وأدنى بكثير من المعرفة المستقبليّة . لأنّه ، بعد قوله ما سبق كان يقول هذا : «إن علمنا ناقص ، ونبوّتنا ناقصة» ، ثمّ «لمّا

كنتُ طفلاً، كنت أنطق كطفل وأعقل كطفل وأفكّر كطفل»، وأخيراً: «الآن ننظر في مرآة، في إبهام؛ أمّا حينئذٍ فوجهاً إلى وجه» (٣٨).

جنون القائلين باختلاف في الجوهر

بهذا تكون جميع سفسطات خصومنا قد دُحِضَت. فعندما يُجهَل بخصوص الجوهر الإلهيّ لا أنّه موجود، وإنّما ما هو، يكون إطلاق اسم عليه قمّة في الجنون. ومن ناحية أخرى، حتّى لو كان واضحاً ومعروفاً لدينا فلن يكون أيضاً آمناً، من جهتنا، أن نطلق لوحدنا ومن تلقاء أنفسنا اسماً على جوهر الربّ. فبولس لم يجرؤ أن يعطي القوّات العلويّة أسماء، يقول: «وأجلس المسيح فوق كلّ رئاسة وسلطان وقوّة وسيادة، وفوق كلّ اسم يُسمَّى ليس في الدهر فقط، بل في الآتي أيضاً» (٣٩). وهكذا لم يشأ أن يجعل لهذه الأسماء أسماء أخرى، ولا أن يبحث عن هذه بحثاً فضوليّاً، معلّماً إيّانا أنّ لهذه القوّات أسماء سنعرفها في المستقبل.

فكيف يكون الذين يجرؤون على مشروع كهذا، إزاء جوهر الربّ، جديرين بالمغفرة والتبرير؟ وبمَا أنّ هذا الجوهر مجهول لدينا، يجب علينا أن نهرب من أولئك الناس هروبنا من المعتوهين. فأن يكون الله غير مولود فهذا حقيقة ثابتة؛ وإنّما أن يكون كذا الاسم اللائق بجوهره، فهذا ما لم ينطق به نبيّ، ولم يُوحِ به رسول ولا إنجيليّ. وهذا طبيعيّ، لأنّه كيف يمكنهم، وهم يجهلون جوهره، أن يعطوه اسمًا؟

احتراز اليونانيّين إزاء الجوهر الإلهيّ

ولكن ، لِمَ التكلّم عن الكتب المقدّسة عندما يكون هذا الهراء واضحاً ، وهذا الضلال مفرطاً إلى حدّ أنّ اليونانيّين أنفسهم ، الذين كانوا بعيدين كل البعد عن الحقيقة ، لم يخطر قطّ ببالهم أن يقولوا أمرًا ما مماثلاً؟ فإنّه لم يجرؤ أحد منهم على تحديد الجوهر الإلهيّ وحصره في اسم واحد. ولماذا نقول «الجوهر الإلهيّ» عندما لم يعطوا ، وهم يتأمّلوا في طبيعة الكائنات التي لا جسم لها ، تحديداً حقيقيّاً لها ؛ بل اكتفوا ، لتعذّر التحديد ، بوصفٍ ، برسمٍ حائرِ الملامح.

حجّتان للقائلين باختلاف في الجوهر

ولكن ، ما هي حجّة أعدائنا الماكرة؟ يقولون لنا : ألا تعرف ما تعبد؟ لا ضرورة البتّة أن يُجاوَب على هذا ، عندما يكون قد بُرهِن سابقاً بواسطة الكتاب برهاناً متواتراً على استحالة معرفة الله في جوهره. ولكن ، لمّا كان ما يوحي بكلامنا هو الرغبة في ردّهم إلى الصواب ، لا الكراهية ، فهيّا بنا نبيّن أنّ الذي يجهل الله ليس من يسلّم بجهل ما هو جوهره ، بل على العكس من يزعم أنّه يعرفه.

قل لي ، لنفترض أنّ رجلين يتشاجران بخصوص مساحة السماء التي يزعمان أنّ كلاًّ منهما يعرفها. يقول الأوّل إنّه لا يسع عين الإنسان أن تحيط بهذه المساحة ، بينما يؤكّد الآخر أنّه يمكن قياسها كاملة براحة اليد. فمن من الاثنين ، في رأينا ، يعرف كبر السماء : هل الذي يزعم أنّه يعرف كم لها من الأشبار ، أم الذي يقرّ أنّه يجهل ذلك؟ فإذا كان بشأن السماء ، يعتبر الذي يتراجع أمام عظمتها هو أفضل

من يعرفها، أفلا نتصرّف بالحذر نفسه، بشأن الله؟ أليس هذا ذروة الجنون؟

ومن ناحية أخرى، لا يُطلَب منّا سوى أمر واحد هو معرفة أنّ الله موجود، لا استقصاء جوهره. أصغِ إلى ما يُقال بهذا الخصوص: «لا بدّ لمن يدنو إلى الله، أن يؤمن بأنه كائن»(٤٠). وفي مكان آخر، إذ يعيب الكاتب الإلهيّ على إنسان ما جحوده، لا يأخذ عليه جهله الله، بل جهله أنّ الله موجود: «قال الجاهل في قلبه: ليس إله»(٤١). فكما أنّ الكفر، في رأيه، يقوم إذن لا على جهل ما هو الله في جوهره، وإنّما على جهل أنّ الله موجود، كذلك يكفي التقوى أن تعرف أنّ الله موجود.

ولكنّ في حوزة خصومنا أيضاً حجّة أخرى مهيّأة بعناية فائقة، فما هي؟ يقولون إنّه مكتوب: «الله روح»(٤٢). قل لي هل يجيز لنا هذا أن نتمثّل جوهره؟ فمن يسلّم بهذا، ممّن اقتربوا أقلّ ما يمكن من دفّتي الكتاب الإلهي؟ وبالفعل، سيكون الله أيضاً وفق هذا الاعتبار ناراً، لأنّه كما كُتِب: «الله روح»، فقد كُتِب أيضاً: «إنّ إلهنا نار آكلة»(٤٣). وفي موضع آخر: «أنا ينبوع المياه الحيّة»(٤٤). وهو ليس فقط روحاً وينبوعاً وناراً، بل أيضاً نفس وريح وفهم بشريّ وأشياء أخرى أيضاً غير معقولة. إذ ليس من الضروريّ استنفاد هذا التعداد والاقتداء هكذا بجنون خصومنا. إنّ لكلمة «روح» في الحقيقة معاني كثيرة. إنّها تعني في ما تعني نفسنا، عندما يقول بولس: «أسلموا مثل هذا الإنسان للشيطان لتُخلَّص الروح»(٤٥). وهي تعني أيضاً الريح عندما الكاتب الإلهيّ يقول: «ستكسرها بقوّة روحك»(٤٦). وتنطبق أيضاً على المواهب الروحيّة: «الروح عينه

يشهد مع روحنا»[٤٧] . وفي موضع آخر: «إنّي أصلّي بالروح، وأصلّي بالعقل أيضاً»[٤٨] . وهي تنطبق على الغضب أيضاً، ما دام أشعيا يقول: «ألست كنت تفكّر بروحك العاتي في إهلاكهم؟»[٤٩] . وأخيراً، يُسمَّى العون الذي يرسله الله أيضاً روحاً: «روح أفواهنا، المسيح الربّ»[٥٠] . فلو صدّقنا أولئك الناس يكون لنا الله كلّ هذا في آن واحد معاً، ومركّباً من جميع هذه العناصر.

ولكن، كفى لغواً! فبدل أن نشغل أنفسنا بحجج لا يُستحَقّ حتّى دحضها، لنوقف هنا نقاشنا ولنلتفت بكليّتنا إلى الصلاة. فكلّما ازداد خصومنا كفراً، توجّب علينا بالتالي الصلاة والتضرّع من أجلهم لكي يكفّوا يوماً عن جنونهم. وهكذا، ينال سلوكنا حظوة لدى الله مخلّصنا، «الذي يريد أنّ جميع الناس يخلصون، وإلى معرفة الحقّ يبلغون»[٥١] .

امتداح الصلاة

لا نوقفنّ إذن قطّ توسّلاتنا من أجل هؤلاء التعساء، لأنّ الصلاة سلاح جبّار وكنز أبديّ، وغنىً لا ينضب ومرفأ أمين من العواصف، ومستودع سلامة. الصلاة هي الجذر والنبع وسبب آلاف من الأمور الصالحة؛ كما أنّ لها قوّة أكبر من الملكيّة نفسها. لقد شوهد مرّات عديدة ذاك نفسه الذي يعتمر التاج، وقد صرعته الحمّى فلزم فراشه متلظّياً، يتزاحم من حوله الأطبّاء والحرّاس والخدم والقوّاد. ولكن، لا فنّ الأطبّاء ولا حضور الأصدقاء ولا نشاط الغلمان، ولا تنوّع الأدوية ولا عظمة الإطار ولا وفرة الثروات

ولا وسيلة أخرى بشريّة قد أفضت إلى تخفيف شدّة الألم. ولكن، ليأتِ رجل يعرف أن يخاطب الله، وليلمس فقط هذا الجسد الممدَّد، وليصلِّ من أجله صلاة حقيقيّة يهزمِ المرض كلّه (٥٢). فما يعجز عنه الغنى وجمهور الخدم وعلم رجال الفنّ وجهاز الملكيّة، تحصل عليه صلاة رجل واحد، فقير ومعوز في أغلب الأحيان.

لكنّ الصلاة التي أتكلّم عنها ما هي بصلاة فاترة يملأها السهو. إنّها صلاة تقام بحماس في أسى النفس وانسحاق الروح. ها هي ذي الصلاة التي ترتفع إلى السماء. فكما أنّ الماء لا ترتفع في الأجواء عندما تجري في أرض منبسطة، وتتوزّع على مساحة شاسعة، وإنّما تنبجس نحو السماء أسرع من سهم إذا ما أرغمتها يد العمّال على العبور في أنبوب ضيّق، بالتضييق عليها من أسفل؛ كذلك النفس البشريّة فهي تتراخى وتتوه عندما تحظى بهدوء تامّ، بينما إذا شدّد ضغط الظروف من الخناق عليها، في مستواها الأسفل، فحينئذ ترسل نحو السماء صلوات حقيقيّة وقويّة متلائمة مع انضغاطها.

ولكي تعلم جيّداً أنّ للصلوات النصيب الأوفر كي تُستَجاب عندما تُتلى في المعاناة، أصغِ الى ما يقوله الكاتب الإلهيّ: «إلى الربّ صرختُ في ضيقي، فاستجابَ لي» (٥٣). فلننعش إذن غيرة ضميرنا، ولنُحزن نفسنا بتذكّر خطايانا، لِنُحزنها لا من أجل تعذيبها بل من أجل وضعها موضعاً تُستَجاب فيه، ومن أجل جعلها قانعة يقظة، والسماح لها هكذا بالبلوغ حتّى السماوات. لا شيء كفيل بطرد الكسل والسهو مثل الألم والضيق، اللذين يجمعان الروح من كلّ صوب فيعيدانها إلى ذاتها. فمن يصلّي هكذا في الضيق يستطيع، بعد صلاته، أن يتذوّق في نفسه فرحاً جزيلاً. وكما أنّ السحب إذ

تتلبّد تشرع في إظلام الجوّ، ثمّ ما إن ترسل سجفاً من الماء غزيرة وتُهطل كلّ المطر الذي كانت تحتويه، تعيد الجوّ صافياً ومشرقاً؛ كذلك الغمّ، فطالما يتكدّس في قلبنا يغمر أفكارنا في الظلمات. ولكن، قد انجلى بانطلاقه خارجًا، بفضل كلمات الصلاة والدموع التي ترافقها، يجيء النفسَ بإشراقة كبيرة إذ يملأ حينئذ تأثيرُ الله نفسَ الذي يصلّي، مثل شعاع الشمس.

ولكن ما هو التعبير البارد لدى كثير من الناس؟

يقول أحدهم: تنقصني الثقة؛ فأنا ممتلىء غموضاً، وليس في وسعي أن أفتح فمي. إنّ هذا خجلٌ شيطانيّ المنشإ، وتذرّعات يتوارى بها الخمول، إذ الشيطان يريد أن يغلق دونك الأبواب التي تفضي إلى الله. أتنقصك الثقة؟ فهذا، على العكس، طمأنينة كبيرة ومنفعة عظيمة بحدّ ذاته أن يُظَنّ بأنّه ينقصنا حافز الثقة. كما أنّه خزي وسبب إدانة أن يُظَنّ بأنّ للمرء كامل الحقّ في أن يأمن إلى نفسه. وفي الواقع، حتّى عندما تأتي أعمالاً صالحة كثيرة، ولا يؤنّبك ضميرك في شيء، إذا ظننت أنّ لك كامل الحقّ في أن تأمن إلى نفسك فإنّك تخسر فائدة الصلاة كلّها. وعلى العكس من ذلك، حتّى إذا كان ضميرك مثقّلاً بحمل آلاف الخطايا فمهما كان اقتناعك ضئيلاً بأنّك آخر جميع الناس، تستطيع مخاطبة الله بيقين كلّيّ.

التواضع الحقيقيّ

ولكن، ليس تواضعاً أن يعتبر الإنسان نفسه خاطئاً، عندما يكون حقيقة كذلك. فالتواضع هو حالة الإنسان الذي لا يستكبر

بذاته وإن كان يعي أنّه قام بأعمال حسنة كثيرة ، والذي وإن كان مشابهاً لبولس ، وفي استطاعته أن يقول معه : «إني لا أشعر بشيء في ضميري» ، يضيف حالاً : «بيد أني لست بذلك مبرّراً»[٥٤] ، أو أيضاً : «إن المسيح يسوع قد أتى ليخلّص الخطأة الذين أنا أوّلهم»[٥٥] . على هذا يقوم التواضع : على أن يحطّ الإنسان من نفسه روحيّاً ، في حين أنّه كبير بأعماله.

بيد أنّ الله في حبّه الذي لا يوصَف للبشر لا يستقبل فقط المتواضعين ويرحّب بهم ، وإنّما أيضاً الذين يعترفون بخطاياهم اعترافاً صادقاً ؛ ويكفي المرء أن يكون مستعدّاً هكذا كي يلقى لديه حظوة وإحساناً. ولكي تعلم كم هو حسن ألّا يستكبر الإنسان في نفسه ، تخيّل عربتين : شدّ إلى الأولى منهما الفضيلة والتكبّر ، وإلى الأخرى الخطيئة مع التواضع ، تَرَ أنّ العربة التي تجرّها الخطيئة تتقدّم على عربة الفضيلة ، لا ، بالتأكيد ، بقوّتها الذاتيّة ، وإنّما بقوّة التواضع المقرونة إليها ؛ كما أنّ الأخرى ستُغلَب على أمرها لا بسبب ضعف الفضيلة ، وإنّما بسبب كتلة التكبّر الباهظة الثقل. فكما أنّ التواضع ينتصر على ثقل الخطيئة ، ويصعد إلى السماء أوّلا بفضل قوّته الجبّارة في الارتفاع ، كذلك التكبّر فهو يغلب سلاسة الفضيلة ، لثقل كتلته الكبير ، ويجرّها بسهولة نحو الأسفل.

وكيما تفهم أنّ إحدى العربتين أسرع من الأخرى ، تذكّر الفريسيّ والعشّار. فالفريسيّ كان يقرن معاً الفضيلة والتكبّر عندما كان يقول : «أللهمَّ ، إني أشكرك ، لأني لستُ كسائر الناس الخطَفةِ الظلمَةِ الفاسقين ، ولا كهذا العشّار»[٥٦] . يا له من جنون ! لم يكفِ تكبّره أن يحطّ من الطبيعة الإنسانيّة عامّة ، فقد أهان أيضاً

بصلف كبير العشّار الواقف قربه. وماذا فعل هذا؟ إنّه لم يُبعد عن نفسه الإهانات، ولم يغتَظ من التعنيف بل تقبّل بكلّ رحابة صدر مثل هذه الكلمات. فغدا السهم الذي قذفه به عدوّه دواء له ومبدأ للشفاء، وانقلبت الإهانة مديحاً والتعنيف إكليلاً. إنّ التواضع جميل ومفيد للغاية حتّى إنّه يسمح بعدم الإحساس بلسع إهانات الآخرين، وبعدم الاحتدام لتحقيرات الذين يحيطون بنا. بل من الممكن أن تُستخرَج من هذه الهجومات ثمرة ممتازة، كما حدث في مثال العشّار. وفي الواقع، قد اطّرح عنه حمل خطاياه بتقبّله الإهانات، وعندما قال: «إرحمني أنا الخاطىء»[٥٧]، عاد إلى بيته مبرَّرا أكثر من ذاك.

وهكذا، فاقت الكلماتُ الأعمال وصار للألفاظ ثقل أكبر من الأفعال. وفي الواقع، كان الواحد يفاخر بعدله وبأصوامه وبالأعشار التي كان يدفعها، بينما لم يكن لدى الآخر إلّا أن يتلفّظ بكلمات بسيطة، كيما تُفرِّغ عن كاهله خطاياه كلّها. ذلك أنّ الله لم يسمع فقط هذه الألفاظ، بل نظر أيضاً إلى نفس الذي كان يتفوّه بها. وإذ وجدها متواضعة ومنسحقة، قضى أنّها أهل لرحمته ومحبّته. وإذا كنتُ أقول لكم هذا فليس بالطبع من أجل أن نخطىء، ولكن كي يكون عندنا مشاعر تواضع. فإذا كان عشّار، أي رجل من اردإ الناس، قد اجتذب على نفسه حظوة كهذه من لدن الله، دون أن يتواضع مع ذلك تواضعاً حقيقيّاً،[٥٨] ولكن لكونه فقط قد أظهر مشاعره الحسنة باعترافه بخطاياه وإقراره بما كان عليه، فأيّ عون عظيم لن يجني أولئك الذين فعلوا الكثير من الصلاح، دون أن يتباهوا به قطّ؟

ضرورة الإقرار بالخطايا

لذا ، أطلب وأتوسّل إليك وأستحلفك أن تقرّ بخطاياك إلى الله ، دون تقاعس. إنّني لا أريد أن أُحضرك لكي تفعل ذلك كما على مرسح ، على مرأى من إخوتك في الشقاء ، ولا أجبرك قطّ على أن تكشف إلى الناس هفواتك. انزع النقاب عن ضميرك في حضرة الله ، وأظهر له جراحك وتوسّل إليه بالدواء. خاطبه لا كأنّه رقيب ، بل طبيب. زد على ذلك أنّ صمتك لن ينفعك في شيء ، ما دام يعرف كلّ شيء. تكلّم إذن ، فهذا نافعٌ لك. تكلّم حتى ، وقد أفرغت هناك خطاياك كلّها ، تعود من ثمّ إلى بيتك نقيّاً ومعتَقاً من كلّ ذنوبك ، فتُعفى هكذا ممّا في الإقرار الجماعيّ من صعوبة لا تطاق (٥٩).

لقد كان الفتية الثلاثة في الأتّون ، يبذلون حياتهم لأجل الإيمان في الربّ. إلّا أنّهم ، بعد استحقاقات عظيمة وعديدة ، كانوا يقولون : «ليس لنا أن نفتح أفواهنا ، فقد صرنا خزيًا وعارًا لعبيدك والقانين لك» (٦٠) . ولماذا تفتحون فمكم ؟ لكي نقول هذا ، حسب ما هو مكتوب : «ليس لنا أن نفتح أفواهنا» ، ولكي ننال بذلك إحسان الربّ.

لقد قهرت قوّة الصلاة أجيج النار ، وحطّمت هيجان الأسد ، وأنهت حروباً ، وأوقفت معارك ، وهدّأت عواصف ، وطردت الشياطين ، وفتحت أبواب السماء ، وحطّمت أغلال الموت ، وأقصت أمراضاً ، وأبعدت مكايد ، وشدّدت من ثبات مدن متقلقلة ، ونحّت الضرَبات المرسَلة من فوق ، مثل الأحابيل التي

ينصبها الناس، وبكلمةٍ الأخطار كلّها. إنّني أفهم بلفظة «صلاة» لا تلك التي لا تكون إلّا في الفم، وإنّما الصلاة التي تنبع من صميم القلب. وفي الواقع، كما أنّ الأشجار التي تغور أجذارها عميقاً لا تُكسَر ولا تُقتَلع، حتّى إذا جهّزت الرياح ضدّها ألف هجوم، لأنّ جذورها متحابكة قويّاً في عمق الأرض، كذلك الصلوات التي تنبعث من صميم القلب تصعد نحو السماء بكلّ أمان، إذ هي متأصّلة هذا التأصّل ولا يحيدها عن مسارها هجوم أيّ من الأفكار. لهذا السبب، يقول الكاتب الإلهيّ: «من الأعماق صرخت إليك يا ربّ» (٦١).

أنا لا أتكلّم هكذا كي تصفّقوا لي فقط، بل لكي تظهروا أيضاً استحسانكم بأعمالكم. فإن كانت روايتك للبشر مصائبَك الشخصيّة، ووصفك لهم بكلّ لطف المحن التي نزلت بك يجلبان لآلامك شيئاً من العزاء، كما لو أنّ نسيماً منعشاً يفوح من خلال الكلمات، فكم بالأحرى تجد تعزية وتشجيعاً غزيرين إن أسررت بعذابات نفسك إلى ربّك! وفي الواقع، غالبًا ما يتحمّل الناس بصعوبة من يأتي لينتحب أو يبكي قربهم، إنّهم يبعدونه ويقصونه. لكنّ الله لا يتصرّف كذلك؛ وحتّى إذا أمضيت يومك كلّه وأنت تبسط له أتراحك، فلن يكون إلّا أكثر استعداداً لأن يحبّك ويستجيب لتوسّلاتك.

الاستسلام للمسيح

فهذا عينه ما كان يريد أن يبيّنه المسيح عندما قال: «تعالوا إليّ يا

جميع المتعَبين والمثقَّلين، وأنا أريحكم»[٦٢]. وهكذا، إنّه ينادينا فلا نعبرنّ دون سماعه. ويجذبنا إليه فلا نهربنّ. وإذا كانت خطايانا لا تُحصى، فلنحثّ الخطى في اللجوء إليه، بالمقدار نفسه، لأنّه ينادي أناساً من هذا الصنف إذ يقول: «لم آتِ لأدعو الصديقين، بل الخطأة إلى التوبة»[٦٣]. وهو يعني بذلك المثقّلين والذين في الضيق، والمرهَقين بثقل خطاياهم. إنّ اسمه إله التعزية، وإله الرحمات[٦٤]، لأنّ شغله الدائم تعزية التعساء والمحزونين وتشجيعهم، وإن ارتكبوا آلاف الخطايا.

لنكتفِ إذن بالاستسلام والإسراع إليه وعدم التخلّي عنه. إذّاك، نتعلّم عن خبرةٍ حقيقة هذه الكلمات. ولا يمكن شيئاً من الموجودات أن يحمل إلينا العذاب، شرط أن تكون صلاتنا حارّة ومكتملة، لأنّ كلّ ما يمكن أن يطرأ سيُبعَد بفضلها بكلّ سهولة.

ولمَ العجب أن تكون قوّة الصلاة كفيلة بأن تقلّل من التقلّبات البشريّة، عندما نرى أنّها تهدم وتلاشي بسهولة خبث الخطايا؟ فلكي نجتاز إذن بسعادة الحياة الحاضرة، ونتخلّص من الخطايا التي تدنّسنا بها، ونمثل بثقة أمام منبر المسيح، علينا أن نوفّر لأنفسنا على الدوام هذا الدواء المركَّب من دموع وورع ومثابرة وقوّة نفس، وهكذا، ننعم بعافية دائمة ونحصل على الخيرات الآتية. ليتكم تحصلون عليها جميعكم، بنعمة ربّنا يسوع المسيح ومحبّته، الذي له المجد مع الآب والروح القدس، الآن وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين. آمين.

الحواشي

(١) إنّنا نصلح «وضيع» μικροτέρας بـ «هامّ» μακροτέρας

(٢) يو ١:١٨

(٣) يو ٦:٤٦

(٤) ١ كو ٢:١١

(٥) ١ كو ٨:٦

(٦) كان سابيليوس (نحو عام ٢٢٠) الممثّل الرئيسيّ للهرطقة المسمّاة بالشّكلانيّة، التي تعلّم أنّ الابن والروح ما هما سوى «حالتين»، وشكلين اتّخذهما الإله الواحد، وليسا هما شخصين متميّزين؛ وذلك بحجّة إنقاذ الوحدانيّة.

(٧) تث ٦:٤

(٨) تث ٦:١٣

(٩) مز ١٤٦:٥

(١٠) مز ٨٢:١٩

(١١) أش ٧: ١٤ راجع متى ١: ٢٣

(١٢) أش ٩: ٦

(١٣) οἰκονομία، أي التدبير الإلهيّ الذي تجلّى بالتجسّد.

(١٤) با ٣: ٣٦

(١٥) با ٣: ٣٧ – ٣٨

(١٦) رو ٩: ٥

(١٧) أف ٥: ٥

(١٨) ٢ تيم ١: ١٠

(١٩) يو ١: ١

(٢٠) متّى ٢٢: ٤٢ – ٤٤

(٢١) لتوضيح هذا النص يجب إضافة العبارة: «... في جملة واحدة». فتعبير يوحنا يلفت النظر باقتضابه وقوته، به يقول إن كلمة «الرب» تعود في الجملة الواحدة إلى الآب والابن وتبرهن أن كليهما يتمتّعان بالألوهة. وهذا ما يبرهنه النص اللاحق.

(٢٢) مز ٤٤: ٧ – ٨

(٢٣) عبر ١: ٧ – ٨

(٢٤) ١ كو ٨: ٦

(٢٥) ١ كو ٨: ١ – ٤

(٢٦) المرجع نفسه: ٥ – ٦

(٢٧) تث ٤: ٣٥؛ أش ٤٥: ٥ و٢١

(٢٨) أش ٤٠: ١٣، رو ١١: ٣٤

(٢٩) ١ كو ٢: ١١

(٣٠) لو ١٠: ٢٢

(٣١) يو ٦: ٤٦

(٣٢) مز ٨: ٥ – ٦

(٣٣) يو ٦: ٤٦

(٣٤) يو ١٠: ١٥

(٣٥) متّى ١١: ٢٧

(٣٦) ١ كو ٣: ١ – ٢

(٣٧) ٢ كو ١٢: ٤

(٣٨) ١ كو ١٣: ٩ – ١٢

(٣٩) أف ١: ٢٠ – ٢١

(٤٠) عبر ١١ : ٦

(٤١) مز ١٣ : ١

(٤٢) يو ٤ : ٢٤

(٤٣) عبر ١٢ : ٢٩

(٤٤) إر ٢ : ١٣

(٤٥) ١ كو ٥ : ٥

(٤٦) مز ٤٧ : ٨

(٤٧) رو ٨ : ١٦

(٤٨) ١ كو ١٤ : ١٥

(٤٩) أش ٢٧ : ٨

(٥٠) مراثي إر ٤ : ٢٠

(٥١) ١ تيم ٢ : ٤

(٥٢) بوضع يديه على المرضى، شفى السيد المسيح عددًا منهم (راجع لوقا ٣ : ١٣؛ مرقس ٥ : ٢٣). وعلى مثاله، وضع الرسل هم أيضاً الأيدي على مرضى فشفوهم (راجع أع ٥ : ١٢؛ ٢٨ : ٨).

(٥٣) مز ١١٩ : ١

(٥٤) ١ كو ٤ : ٤

(٥٥) ١ تيم ١ : ١٥

(٥٦) لو ١٨ : ١١

(٥٧) لو ١٨ : ١٣

(٥٨) يجب التذكّر هنا بما قاله الذهبيّ الفم أعلاه: «ليس بتواضعٍ أن يعتبر الإنسان نفسَهُ خاطئًا، عندما يكون حقيقة كذلك. التواضع هو حالة الذي وإنْ كان يعي أنّه قام بأعمال حسنة كثيرة، لا يستكبر بذاته». وبالجملة اللاحقة يهيّئ الذهبيّ الفم مستمعيه للمقطع التالي: «ضرورة الإقرار بالخطايا».

(٥٩) الإقرار المقصود هنا ليس الاعتراف السرّيّ، بل الإقرار بالخطايا أمام الله وحده، الذي يكفي للحصول منه على الغفران، حسب المؤلّف، كما يقيم البرهان على ذلك العديد من المقاطع. أنظر مثلاً P.G. XL VIII, 1012; XLIX, 236.
فغاية الذهبيّ الفمّ هي حمل مستمعيه المؤمنين على ندامة حقيقيّة وتعويض صادق وأمانة في السيرة إنجيليّة. أما أن يجد المؤرخون في عظته هذه وحدها الأسلوب المتّبع للاعتراف في زمانه فذلك صعب.

(٦٠) دا ٣ : ٣٣

(٦١) مز ١٢٩ : ١

(٦٢) متّى ١١ : ٢٨

(٦٣) متّى ٩ : ١٣

(٦٤) ٢ كور ١ : ٣



- أ -

— ر —

— ز —

— س —

— ص —

— ط —

— غ —

— ف —

— ق —

— ك —

— ل —

— م —

— ن —

— هـ —

— ي —

الفهرس

المطبعة البولسية
جونية - لبنان

A.T.I.M.E.

رابطة معاهد اللاهوت في الشرق الأوسط

المنتسبة إلى



مجلس كنائس الشرق الأوسط

المركز الرئيسي:
ص.ب. ٥٣٧٦ بيروت – لبنان
هاتف: ٨٦١٦٧٠-٣٥٣٩٣٨
برقيًا: اكليسيا
تلكس: 22662 OIK LE

مكتب الاتصال:
P.O.Box 4259 Limassol. Cyprus
Tel: 05-326022
تلكس: 5378 OIK CY
تلفاكس: 05 – 324496